رسالة الغفران

أبو العلاء المعري

رسالة الغفران

رسالة الغفران

تأليف
أبو العلاء المعري

تحقيق
كامل كيلاني

هنـــداوي

رسالة الغفران

أبو العلاء المعري

رقم إيداع ١٥٦٢٨ / ٢٠١٣
تدمك: ٤ ٣٧٦ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

الجزء الأول: الغفران ٧

الإهداء ٩

ترجمة ابن القارح ١١

ترجمة أبي العلاء ١٥

أبو العلاء المعري ١٩

الفردوس ٢٣

حكاية ابن القارح ٥٣

جنة العفاريت ٧٣

الجحيم ٨٧

عودة إلى الفردوس ١٠٩

الجزء الثاني: الرد على رسالة ابن القارح ١١٧

الرد على رسالة ابن القارح ١١٩

الجزء الأول

الغفران

كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

لو جاء من أهل البِلى مُخْبِرٌ سـألـتُ عـن قـوم وأرَّخْـت
هل فـاز بـالـجـنـة عُمَّـالُـها؟ وهل ثَوى في النار نُوبخْتُ؟

أبو العلاء

الإهداء

بقلم كامل كيلاني

إلى الشباب المفكر الذي أدرك حقيقة الأدب الحي، وعرف قيمته وأثره في إحياء النفوس وإنهاض الشعوب.

إلى الشباب المفكر الذي اطَّلع على الآداب الغربية، فسحرته أنغامها العديدة، وهالَهُ خضمها الزاخر الجياش بشتى إحساسات الحياة وخوالجها ومُثلها الرائعة. وعطف على الآداب العربية، فأحرج صدره ما فيها من الخلط وسوء الاختيار، فعزف عنها مزدريًا ناقمًا — وله بعض العذر — واندفع متهافتًا على الأدب الغربي الذي وجد فيه لكل خالجة وترًا، تشجيه أنغامه وتملأ فراغ نفسه وتحلق بها في أسمى ملكوت تطمح إليه.

إلى هذه الفئة من الشباب، أقدم هذا الكتاب الذي أرى فيه فنًّا من الأدب العالي، أجرؤ فأزعم — لا متحمسًا للغتنا، ولا متعصبًا لآدابنا، ولا مجازفًا في زعمي — أنه لا يقل عن أَجَلِّ أثر أخرجه أكبر رأس غربي مفكر، وهنا نمسك القول حذرًا من الإسراف والشطط …

ترجمة ابن القارح

من رسالة ابن القارح[1]

«كنتُ أدرس على أبي عبد الله بن خالويه — رحمه الله — وأختلف إلى دار أبي الحسين المغربي. ولما مات ابن خالويه، سافرت إلى بغداد، ونزلت على أبي علي الفارسي. وكنت أختلف إلى علماء بغداد: إلى أبي سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرماني، وأبي عبيدة المرزباني، وأبي حفص الكتابي. وكتبت حديث رسول الله ﷺ، وبلغت نفسي أغراضها جهدي، والجهد عاذر.»

«ثم سافرتُ منها إلى مصر، ولقيت أبا الحسن المغربي، فألزمني أن لزمته لزوم الظل، وكنت منه مكان المِثْل، في كثرة الإنصاف والحُنو. فقال لي سرًّا: «أنا أخاف همة أبي القاسم أن تَنْزوِ به إلى أن يوردنا وردًا لا صدر عنه.» وقال لي يومًا: «ما نرضى بالخمول الذي نحن فيه.» فقلت: «وأيُّ خمول هنا؟ تأخذون من مولانا في كل سنة ستة آلاف دينار، وأبوك من شيوخ الدولة، وهو مُعَظَّم مُكَرَّم!» فقال: «أريد أن تُصار إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب، ولا أرضى بأن يُجرى علينا كالولدان والنسوان.» فأعدتُ ذلك على أبيه، فقال: «ما أَخْوَفَني أن يَخضِب أبو القاسم هذه من هذه»، وقَبَض على لحيته وهامته.

وعلم أبو القاسم بذلك، فصارت بيني وبينه وقفة».

وأنفذ إلي القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر، فشرفني بشريف خدمته، فرأيت الحاكم كلما قتل رئيسًا، أنفذ رأسه إليه، وقال: «هذا عدوي وعدوك يا حسين.» فقلت: «مَنْ بَرَّ يومًا، يَرَ به، والدهر لا يفتر به.» وعلمتُ أنه كذا يفعل به.

فاستأذنته في الحج، فأذِنَ، فخرجت في سنة سبع وتسعين، وحججت خمسة أعوام.

وعدت إلى مصر، وقد قتَلَه، فجاءني أولاده سرًّا، يرومون الرجوع إليهم، فقلت لهم: «خيرُ ما لي ولكم الهربُ، ولأبيكم ببغداد خمسمئة ألف دينار، فاهرُبوا وأَهْرُب.» ففعلوا وفعلتُ.

وبلغني قتلُهم بدمشق، وأنا بطرابلس، فدخلت إلى أنطاكية، وخرجت منها إلى ملطية، وبها المايسطرية خولة بنت سعد الدولة، فأقمت عندها إلى أن ورد عليَّ كتاب أبي القاسم، فسرت إلى ميافارقين، فكان يُسِرُّ حَسْوًا في ارْتِغاء؛ قال لي يومًا من الأيام: «ما رأيك؟» قلت: «أعرضت حاجة؟» قال: «لا، أردت أن ألعنك.» قلت: «فالْعنِّي غائبًا.» قال: «لا، في وجهك أشفى.» قلت: «ولِمَ؟» قال: «لمخالفتك إياي فيما تعلم.»

وقلت له، ونحن على أُنْس، بيني وبينه: «لي حرمات ثلاث: البلدية، وتربية أبيه لي، وتربيتي لإخوته.» قال: «وهذه حُرم مهتكة، البلدية نسب بين الجدران، وتربية أبي لك مِنة لنا عليك، وتربيتك لإخوتي، بالخلع والدنانير.» أردت أن أقول له: «استرحت من حيث تعب الكرام.» فخشيت جنون جنونه.

وقال لي ليلة: «أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة في بيت واحد، وليس يسمح لي ما أرضاه.» فقلت: «أنا أفعل من هذه الساعة.» فأخذت القلم، وكتبت بحضرته:

لقد أشبهتني شمعة في صبابتي وفي هول ما ألقى وما أتوقع
نُحولٌ وحرقٌ في فناء ووحدةٌ وتَسْهيدُ عين واصفرارٌ وأدمع

فقال: «كنتَ عملت هذا قبل هذا الوقت؟» فقلت: «تمنعني سرعة الخاطر، وتعطيني علم الغيب؟» وكان أبو القاسم ملولًا، لا يمل أن يمل، ويحقد حقدَ من لا تلين كبده، كأنه من كبره قد ركب الفلك، فلما رأيته سادرًا جاريًا في قلة إنصافي، على غلوائه، محوت ذكره عن صفحة فؤادي:

ففي الناس إن رثتْ حبالُك واصل   وفي الأرض عن ذات القلى مُتَحَول

وأنشدت الرجل أبياتًا، أعتذر بها في قطعي له:

فلو كان من الخير إذ كان شره   عتيدًا، لقلنا إن خيرًا مع الشر
ولو كان، إذ لا خير، لا شر عنده،   صبرنا، وقلنا: «لا يريش ولا يبري»
ولـكـنـه شـر، ولا خـيـر عـنـده   وليس على شر، إذا دام، من صبر

وبغضي له — يشهد الله — حيًّا وميتًا، أَوْجَبَهُ أخذُه محاريب الكعبة الذهب والفضة، وضربها نقودًا ودراهم، وسماها الكعبية، وأنهب العرب الرملة، وضرب بغداد، وكم دم سفك، وحريم انتهك، وحرة أرمل، وصبي أيتم.

هوامش

(١) هو علي بن منصور الحلبي، لقبه دوخلة، وكنيته أبو الحسن، ويُعرف بابن القارح، وكان مولده بحلب سنة ٣٥١، ولم يتزوج ولا أَعْقَبَ، وهو الذي كتب رسالته المشهورة المنشورة بالجزء الثالث من هذا الكتاب وبعثها إلى أبي العلاء، الذي أجابه عليها بهذه الرسالة الرائعة ووسمها برسالة الغفران. وسنبين سبب هذه التسمية في الكلام على رسالة الغفران أثناء ترجمة أبي العلاء.

ترجمة أبي العلاء

اسمه أحمد، وكنيته أبو العلاء، واسم أبيه عبد الله بن سليمان المعري، وبلده معرة النعمان، وهي قرية صغيرة في شمال سوريا بين حلب وحمص.

وُلد قبل مغيب شمس يوم الجمعة، وهو الثامن والعشرين من ربيع الأول، سنة ثلاث وستين وثلثمئة هجرية، وهي توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة للمسيح.

وفي السنة الرابعة من حياته (٣٦٧هـ) أصيب بالجدري، فكاد يودي بحياته، ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى وغَشَى اليمنى بالبياض ثم بالعمى، وبهذه الحادثة تمت أول نكبة أعدها له الزمن، فكان لها في حياته أكبر الأثر.

ذهب إلى الدراسة في حلب بعد أن أتم الدراسة على أبيه — وكانت حلب في زمنه مكتظة بأفاضل العلماء ورجال الأدب، ممن دعاهم سيف الدولة في زمنه وأغدق عليهم النعم، فملؤا حلب علمًا، في زمنه وبعد موته، فانتفع بعلمهم أبو العلاء.

ثم سافر إلى أنطاكية ووعى ما شاء من نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة، وكان بها كثير من الروم، الذين شاهد أبو العلاء صَوْلتهم واعتزازهم بها.

ثم سافر إلى طرابلس الشام، ومر باللاذقية في طريقه، فنزل بديرٍ فيها، وأخذ — عن راهب فيه كان دارسًا لعلوم الفلسفة وغيرها — كثيرًا من الآراء. واشتدت الصلة بين أبي العلاء وبين النصارى واليهود، حتى تمكن من درس دينهم ومناقشتهم فيه، ثم عاد إلى معرة النعمان.

ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧، فرثاه بنُونيته المعروفة في سقط الزند، وهي تمثل شعره في صباه.

ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨، وذاع بها صيته، واطلع على مكاتبها الشهيرة، واشترك في المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة.

ثم دعاه إلى مغادرة بغداد مرضُ أمه وفقرُه مع أنفته من التكسب بشعره وأدبه، فتركها في رمضان سنة ٤٠٠هـ، واحتفل بتوديعه أهل بغداد وحزنوا على فراقه أشد الحزن.

وإنه لفي طريقه إلى المعرة إذ وافاه نَعْيُ أمه، فتمت نقمته على الدنيا. وكانت تلك النكبات الفادحة التي لقيها في حياته، أكبر باعث له على الأخذ بقانونه الصارم الذي سَنَّه لنفسه: وهو اعتزال الناس.

وقد حاول تنفيذ هذا القانون، فلم يُوفَّق إلى ذلك؛ لالتفاف الطلاب حوله، وإقبال الكثيرين من المعجَبين به على زيارته، ووفودهم إليه من بلاد نائية ليتلقوا عنه العلم.

وكان له وَقْفٌ يحصل منه كل عام على ثلاثين دينارًا، يعطي خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر. وكان فقيرًا متقشفًا زاهدًا لا يمدح أحدًا طمعًا في مال أو جاه، يأكل الشعير ويلبس الصوف الغليظ.

وهو أول من خَطَّ للشعر العربي طريقًا جدية فلسفية خاصة به، وملأ شعره بأسمى المبادئ الاجتماعية والأدبية والعالمية، التي انفرد بها دون سواه من بين شعراء العربية جميعًا.

أما كُتبه فعديدة قيِّمة، ولكن أكثرها قد فُقِدَ لسوء الحظ ولم يبق لنا منها إلا سقط الزند، ويحتوي شعرَه في عهد الشباب، وليس فيه إلا بضع قصائد بلغت الذروة في الإجادة، أما الباقي فأكثره متكلَّف سخيف أفسدته المبالغات والتقليد، وقد اعترف بذلك في مقدمته. وكتاب اللزوميات، ويعد في نظرنا أنفس ديوان عربي، ويشمل جمهور الفلسفة العلائية الرائعة، رغم ذلك القيد الثقيل الذي أخذ به نفسه، وهو مضاعفة القافية. وديوان الدرعيات، وهو خاص بوصف الدروع. ورسالة الملائكة، ورسائله التي طبعها مرجليوث.

ومن أمتع ما كتبه: رسالة الغفران، التي تُعَدُّ — بحق — أنفس أثر له بعد كتاب اللزوميات، والتي خصصنا لدراستها مقدمة الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وإنما أطلق عليها هذا الاسم (الغفران)؛ لأن الفكرة الرئيسية التي دفعته إلى إنشائها — وقت إجابته على رسالة ابن القارح — هي مناقشة من فازوا بالمغفرة ومن حُرموها في الدار الآخرة. ومما يسترعي انتباهتك فيها، أنه كان يكثر من سؤال من يصادفه في الجنة: «بم غفر لك؟» كما كان يكثر من سؤال من يجده في النار: «لم يغفر لك قولك ...؟ إلخ».

ونحسب أن أبا العلاء بعد أن لازمته فكرة البعث تلك المدة الطويلة، وبعد أن أنضجها في لزومياته، وأتى بها في صور شتى، ردد في كثير منها ميله الشديد إلى استفسار من ماتوا عما لقوه من أصناف النعيم أو العذاب، وود لو أتيح له الظفر بسؤال واحد منهم، ليأخذ عنه اليقين، ويضع حدًّا لشكوكه وحيرته، كما تراه في قوله:

لو جاء من أهل البلى مُخْبِر سألت عن قوم وأرَّخْت
هل فاز بالجنة عُمَّالُها؟ وهل ثَوى في النار نوبخت

نقول: إن أبا العلاء بعد أن يئس من مثل تلك الأماني الباطلة، لجأ إلى الخيال — وما أوسع عالمه، إذا ضاق بالإنسان عالم الحقائق — وأودع هذه الرسالة خلاصة أفكاره، وهي في اعتقادنا أوضح وأدق وأبرع صورة شعرية، قرأناها عن البعث وأحوال الناس فيه.

وقد كتب هذه الرسالة في سنة ٤٢٤هـ وهو في الثالثة والستين من عمره (انظر جزء ٢).

ومن أهم كتبه المفقودة: كتاب الأيك والغصون، الذي نيفتْ أجزاؤه على المئة، ولا يعلم — إلا الله وحده — مقدار الخسارة العظيمة، بل النكبة الفادحة، التي أَلَمَّتْ بالأدب العربي من جراء فَقْدِ هذا الكتاب الذي أخرجه ذلك الرأس المفكِّر العظيم. ولسنا نرتاب فيما قالوه عن محتويات ذلك السِّفر الجليل؛ فإن الذي يجيب صاحبًا له برسالة كرسالة الغفران، ويقول في مقدمة لزومياته: «كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق تَوَخَّيْتُ فيها صدق الكلمة ... إلخ».

إن رجلًا يفعل ذلك، لا نستبعد عليه، إذا قصد إلى التأليف أن يُخرج للعالم مثل ذلك الكتاب الجليل الشأن.

نيفَ أبو العلاء على الثمانين سنة، ثم أودتْ به علة لازمته أيامًا ثلاثة، وكان موته في اليوم العاشر من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمئة.

أبو العلاء المعري

لحضرة العالم الباحث الجليل محمد فريد وجدي بك:

الفكر الإنساني بصيص من النور الإلهي الفائض على الوجود، والمفكرون مصابيحه ينعكس منهم على من دونهم، فيهتدون به في سلوك دياجير هذه الحياة. فلولاهم لخبط السارون في متاهاتها، لا يهتدون إلى غاية، ولا ينتهون من وجودهم إلى نهاية، لذلك أُلقي في روع الناس — حتى وهُم في أحَطِّ درجات التعقل — إكبارُ المفكرين وتعظيمهم، وتَلَقُّف أقوالهم وآرائهم. ورُب أمة رُزقت واحدًا منهم فنقلها من الظلمات إلى النور، بعد أن عاشت قبله أجيالًا تتقلب في كسف من دونها كسف، ولا تعرف الوجود ولا يعرفها الوجود.

أبو العلاء المعري واحد من أولئك المفكرين، عَرِفَهُ صاغةُ الكلام شاعرًا من المبرَّزين، وعَدَّهُ نَقَدةُ الأفهام حكيمًا من المقدَّمين، فوجد هؤلاء وهؤلاء منه ما يبلغ أقصى ما تتطلع إليه نفس من تصوير وإبداع، وخيال واختراع، وسريان في سرائر الكائنات، واستجلاء لحقائق الموجودات.

إلا أن فضل أبي العلاء لم يظهر في عصر من العصور أجلى وأكمل مما ظهر في عهدنا هذا: عهد الأبحاث والشكوك، عهد المذاهب والمقالات؛[1] حيث اشتجرت العقول، وتناحرت الآراء، وثارت أعاصير الريب، فاكتسحت أمامها أصولًا راسخة من عقائد صحبت الإنسان منذ عهده الأقدم. فكان لظهورِ فضل أبي العلاء في هذا المضطرب الهائل للمذاهب، والمزدحم الرائع للفلسفات بعد ما كابدت من حرارة الكفاح ما كابدت، أثرٌ عميق في نفوس المعاصرين، ارتفع الرجل به إلى المكانة التي يجب أن تكون له بين السابقين الأولين.

نعم، لقي أبو العلاء من الذين يصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها، ما يلقاه كل مفكر خلص من أغلال التقليد، فاتهمه من لا يفهمه بالإلحاد والزندقة، وقوَّلوه ما لم يقله من الشعر المزري بالأديان، الحاطِّ من كرامة مؤسسيها. وتصدى كثيرٌ من أئمة المتأدبين لتبرئته مما نُسب إليه، فكان من أثر ذلك أن تكوَّن حول اسمه جو غريب حمل الكثيرين من أهل الورع على كراهية شعره، حتى إن مصحح المطبعة الأميرية تحرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات أبي العلاء، وكان ناشرها يطبعها هناك، فجاءت كثيرة الأخطاء من جراء ذلك! أين هذا من تزاحم الأدباء والمفكرين في أوروبا على ورود مناهل رجالاتهم الأعلام وعنايتهم بجمع كل شاردة وآبدة من أقوالهم وآرائهم.

لم يُعْنَ الغربيون بنبغائهم من أهل العبقرية هذه العناية باعتبار أنهم لا يخطئون ولا يخلطون، أو أنهم ملهَمون ومحدَّثون، بل باعتبار أنهم مفكرون أحرار، لا يتقيدون بالمذاهب، ولم يُخضعوا عقولهم لغاصب، فحلَّقوا من عالم المعاني في جو خلص من شوائب الحيوانية، فقطفوا من حقائقه أزاهرَ أودعوها نَظْمَهم ونَثْرَهم مختلطة بهنات مما يلازم الطبيعة الأرضية.

فالمُكبون على رشحات أقلامهم إنما يتنسمون من خلال أسطرها نسمات تلك الأزاهر، فتفعمهم برياها الشذي، وتحيي أنفسهم بروحها العلوي.

فلو أراد ناقد معاصر أن يجمع سخافات أمثال شيكسبير وداني وفولتير وفيكتور هوجو، لملأ منها أسفارًا. ولكن ليس هذا من العدل في شيء؛ إذ يكون هذا الناقد قد قصر نظره على ظاهر الكلام، ولم يتنور الروح المودعة فيه، فحرم نفسه أحوج ما يكون إليه.

بهذه العين يجب أن يُنظر للنابغين والعبقريين، وبهذه النهمة يجب أن يعنى بما دونوه في الطروس من منثورهم ومنظومهم. وأبو العلاء واحد من هؤلاء، بل من أبعدهم غورًا، وأمثلهم سجلًا، وأعذبهم موردًا، وأعجبهم حالًا.

لسنا بسبيل إيراد تاريخ صاحب رسالة الغفران، غير أننا نقول: إنه كان كفيف البصر، ككثيرين قبله وبعده من النوابغ، وكان مع عراقته في الشعر، وتصرفه في فنونه، لم يَقُلْه مُتكسِّبًا، فلم يقبل جائزة عليه قط، وكان مكتفيًا بغلَّةِ وَقْفٍ له تبلغ ثلاثين دينارًا، كان يعطي خادمه منها نصفها، ويقنع بنصفها الآخر طول سنته.

أعجبُ من هذا كله وأدل على فضله ونزوعه عن قذر هذا العالَم ومظالمه، تَقَزُّزُ نفسه عن أكل اللحم، وتأثُّمه من قتل الحيوان بعد الأربعين من عمره، فعاش بعدها نيفًا

وأربعين سنة لم تمس شفتاه جثة كائن حي، حتى إنه لما مرض المرضة التي مات فيها نصحه طبيبه بأكل فَرُّوج للتَّقوي به — في زعمه — فأبى أبو العلاء أن يستبقي حياته بإزهاق روح، فعمد أهله إلى فرُّوج فذبحوه دون أن يَعلم هو ذلك، ثم قدموه إليه، فلما تناوله أدركه نفور منه وألقاه من يده، فأخبروه بأنهم إنما فعلوا ذلك طلبًا لشفائه، فمد يده ثانية وأمسك الفروج وقال كأنه يخاطبه: مسكين أيها الفروج، أَمِنوا شَرَّك فذبحوك، ولو كانوا خافوا بأسَكَ لهابوك. ثم رمى به ولم يتناول منه شيئًا.

مثل هذه النفس لا تُحرم نورًا علويًّا، ولا تُمنع عروجًا سماويًّا، فلا عجب أن عثرنا في شعر أبي العلاء ونثره على لطائف وجدانية، لا تتنزل على سواه من عبيد بطونهم وأسرى مشاعرهم. ولا غَرْوَ بعد هذا أن حَصَلَ له من الشهرة والإقبال في العصر الأخير — عصر النقد والتحليل — أكثرُ مما كان له وهو بين ظهراني معاصريه، والمحيطين به لالتقاط الدرر من فيه.

وأن أجمل ما كتبه وأجمعه لآرائه في الدين والعلم والأخلاق، وفي أساليب الشعر وفنونه ورجاله وعيونه، آيته الموسومة برسالة الغفران؛ فقد صَورت من روحه ما لم يُصوره شعره للدهماء، ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي ولزوم ما لا يلزم، تجعل معانيه بعيدة المنال، وتُنور الروح المودَعة فيه من أشق المحاولات. ولكن النثر لخُلُوِّه من هذه الحوائل، تتجلى فيه روح صاحبه بأجلى مظاهرها، وتتبين أغراضه بأقل كلفة، وإن كان دون الشعر من حيث التأثير في النفس، والسطوة بالعواطف — فرسالة الغفران من هذه الوجهة طلبة كل محب لاستشراق روح أبي العلاء. ولكن يحول دون هذه الفائدة العظمى أنه أَكْثَرَ من غريب اللغة، وأطال في سرد عبارات غامضة أو ضَرْب أمثال شاردة أو ذِكْر ما لا يَعني إلا العربيَّ القُح في ذلك العهد. ونحن نعطي قارأنا مثلًا من ذلك، قال: «قد علم الحبر الذي نسب إليه جبريل، وهو في كل الخيرات سبيل، أن في مسكني خماطة ما كانت قط أفانية، ولا الناكزة بها غانية.»

وقال: «وأن في طمري لحضبًا وكل بأذاتي، لو نَطَق لذَكَر شذاتي، ما هو بساكن في الشقاب، ولا بمتشرف على النقاب، ما ظهر في شتاء ولا صيف، ولا مر بجبل ولا خيف ... إلخ إلخ.»

فالرسالة في مثل هذا المعرض يصعب على الأكثرين قراءتُها ومزاولتها، والاستفادة ممَّا حوته من آراء مُسدَّدة، وأحكام عادلة، ونظرات ثاقبة. ولو أحصينا عدد من قرأ هذه

الرسالة من جملة المتأدبين لَمَا ألفيناهم يجاوزون العشرة في المئة، وهذا حرمان يألَم منه طلاب الأدب العالي.

فبتوفيق من الله ألهم الفاضل الألمعي كامل أفندي كيلاني أن يُلخص هذه الرسالة على أسلوب تَبْرُز به أغراض أبي العلاء كاملة، دون أن يَحُول بينها وبين القارئ ما أحيطت به من المترادفات الغامضة والشؤون المحلية الخاصة، مما جعل الرسالة عبئًا ثقيلًا على المعاصرين يكدُّ أذهانَهم ويكلُّ عزائمهم ويقف بهم عند حد منها لا يَتعَدَّوْنه. ومن محاسن هذا العمل المشكور الذي نُسجله لأديبنا الشاب بالإعجاب، أنه جاء من حُسن الاتساق، وتناسُب الأجزاء، وتوافر الأغراض، بحيث يُخيل للقارئ أنه يقرأ رسالة أبي العلاء قبل أن تتناولها يد التلخيص، وأعجب من هذا أنه لم يزِد فيها حرفًا، ولا من أغراضها غرضًا، فهي من هذه الوجهة أحسن ما رأينا في هذا الباب.

أما فوائد هذا العمل فلا نَخالها تخفى على أحد، فمنها سهولة تداول هذه الرسالة، وعموم الانتفاع بها، وتيسُّر تكرارها. وهي فوائد لا أستطيع أن أحدَّ مداها من النفع العام، ولا أن أُوفي مسبِّبَها الشكر على جليل خدمته، فالله يتولى مثوبته، ويُجزل مكافأته، وينفع بعمله هذا طلابَ العربية وعشاق الفنون الأدبية، إنه أكرم مسؤول.

هوامش

(١) المذاهب.

الفردوس

وصلت الرسالة التي بَحرُها بالحِكَم مسجور،[1] ومَن قرأها لا شك مأجور،[2] وغرقتُ في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة، وفي قدرة ربنا — جلت عظمتُه — أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور. ولعله — سبحانه — قد نَصَبَ لسطورها المُنجية من اللهب معاريجَ[3] من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء، بدليل الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

وفي تلك السطور كَلِم كثير، كله عند البارئ — تَقدَّسَ — أثير،[4] وقد غُرس لمولاي الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط،[5] والولدان المُخلَّدون في ظل تلك الشجر قيام وقعود، يقولون والله القادر على كل شيء عزيز: «نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلي بن منصور، نخبأ له إلى نفخ الصور.» وتجرى في أصول ذلك الشجر أنهار تختلج[6] من ماء الحيوان، والكوثر يمدها في كل أوان، مَن شَرِب منها النغبة[7] فلا موت، قد أمن هنالك الفوت.[8] وسُعُد من اللبن مختلفات لا تُغير بأن تطول الأوقات، وجعافر[9] من الرحيق[10] المختوم، كما قال علقمة:

تشفي الصداع ولا يؤذيه صالبها ولا يخالط منها الرأس تدويم[11]

ويَعمد إليها المغترِف بكؤوس من العسجد[١٢] وأباريق خُلقت من الزبرجد، لو رآها أبو زيد لعَلِم أنه ما تشبَّب بخير وهزئ بقوله:

وأباريق مثل أعناق طير الـ ـماء قد جيب فوقهن خنيف[١٣]

ولو نظر إليها علقمة لبرق[١٤] وفرق[١٥] وعلم أنه قد طرق،[١٦] ما ابن عبدة[١٧] وما فريقه؟ قد خسر وكسر إبريقه،[١٨] نظرة إلى تلك الأباريق خير من بنت الكرمة العاجلية، ومن كل ريق ضمنته هذه الدار الخادعة. ولو بَصر بها عدي بن زيد، لشُغل عن المدام والصيد، واعتَرف بأن أباريق مدامه أمرٌ هين لا يَعدل بنابت من حمصيص[١٩] أو ما حُقر من خرٍّ بصيص.[٢٠] فأما الأقيشر السعدي فإنه قال ولعله سيندم:

أفنى تلادي[٢١] وما جمعت من نشب[٢٢] قرع القوازيز[٢٣] أفواه الأباريق[٢٤]

ما هو وما شرابه؟ تقضت في الخائنة آرابه.[٢٥]

لو عاين تلك الأباريق لأيقن أنه فُتن بالغرور وسُر بغير مُوجِب للسرور. وكم على تلك الأنهار من آنية زبرجد وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق، يخال أن لمس أحرق، كما قال الصنوبري:

تخيله ساطعًا وهجُه فتأبى الدنو إلى وهجه

وفي تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة[٢٦] والغانية عن الماء،[٢٧] فمنها ما هو على صور الكراكي وأُخر تشاكل المكاكي، وعلى خلق طواويس وبط، فبعض في الجارية وبعض في الشط، ينبع من أفواهها شراب لو جرع منه جرعة الحكمي[٢٨] لحكم بأنه الفوز، وشهد له كلُّ وصَّاف للخمر من محدث وعتيق أن أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية كخمر عانة وأذرعات وغزة وبيت راس، وما جُلب من بصرى وما اعتصر بصرخد أو أرض شام، وما تردد ذكره من كميت بابل وصريفين، وما عُمل من أجناس المسكرات وما وُلد من النخيل، إذا كانت تلك النطفة[٢٩] ملكة لا تصلح أن تكون برعاياها مشتبكة.[٣٠] ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل، ولكن قال له العزيز القادر: «كُن»، فكان.

واهًا لذلك عسلًا لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قُدر له عارض موم[٣١] ولا لَبس ثوب المحموم، وذلك كله بدليل الآية: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[٣٢] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. فليت شعري عن النمر بن تولب العكلي، هل يقدر له أن يذوق ذلك الأرى[٣٣] فيعلم أن شهد الفانية إذا قيس إليه وجد يشاكه[٣٤] الشرى،[٣٥] وهو لما وصف أم حصن ذكر حواري[٣٦] بسمن وعسل مصفى، قال:

ألمَّ بصحبتي وهم هجوع　　خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلًا مصفى　　إذا شاءت وحواري بسمن

ولو خالط مَنٌّ[٣٧] من عسل الجنان ما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة كالصاب والمقر[٣٨] لعُدَّ من اللذائذ!

وإذا مَنَّ الله — تبارك اسمه — بورود تلك الأنهار، صاد فيها الوارد سمك حلاوة لم ير مثله، لو بصر به أحمد بن الحسين[٣٩] لاحتقر الهدية التي أهديت إليه فقال فيها:

أقلُّ ما في أقلِّها سَمَكٌ　　يلعب في بركة من العسل[٤٠]

فأما الأنهار الخمرية، فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية ونهرية، فإذا مَد المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شَرِبَ مِن فيها عذبًا، لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشاربُ لحلَّت منه أسافل وغوارب.[٤١]

ندامى الفردوس

وكأني به — وقد استحق تلك الرتبة — وقد اصطفي له ندامى من أدباء الفردوس كأخي ثمالة[٤٢] وأخي دوس[٤٣] ويونس بن حبيب الضبي وابن مسعدة المجاشعي، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. فصَدْرُ أحمد بن يحيى[٤٤] هنالك قد غُسل من الحقد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافيان ويتوافيان، وأبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه قد

رُحضتْ[٤٥] سويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة، وأبو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قريب:[٤٦] ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ❁ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهو معهم كما قال البكري:

نازَعَتْهم قضب الريحان مرتفقًا[٤٧] وقهوة[٤٨] مزة[٤٩] راووقها[٥٠] خضل[٥١]
لا يستفيقون منها وهي راهنة إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف[٥٢] مقلص أسفل السربال معتمل[٥٣]
ومستجيب[٥٤] لصوت الصنج[٥٥] تسمعه إذا ترجع[٥٦] فيه القينة الفضل[٥٧]

وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان، والأصمعي ينشدهم ما أحسن قائله. وتهش نفوسهم للعب، فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق، ويصفقها[٥٨] الماذيّ[٥٩] أي تصفيق، وتقترع[٦٠] تلك الآنية فيسمع لها أصوات تبعث[٦١] بمثلها الأموات، فيقول الشيخ: آه لمصرع الأعشى ميمون! وددتُ أنه ما صدته قريش لما توجه إلى النبي ﷺ، ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فينشدنا غريب الأوزان مما نظم في دار الأحزان، ويحدثنا حديثه مع هوذة بن علي وعامر بن الطفيل ويزيد بن مُسْهِر وغيرهم ممن مدحه أو هجاه، وخافه أو رجاه.

نزهة ابن القارح

ثم إنه — أدام الله تمكينه — يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة في الدار الفانية، فيركب نجيبًا[٦٢] من نجب الجنة خُلق من ياقوت ودُرٍّ، في سجسج[٦٣] بَعُدَ عن الحر والقَرِّ، فيسير في الجنة على غير منهج ومعه شيء من طعام الخلود، فإذا رأى نجيبه يُمْلِعُ[٦٤] بين كثبان العنبر رفع صوته متمثلًا بقول البكري:[٦٥]

ليت شعري متى تَخُبُ[٦٦] بنا النا قة بين العذيب فالصيبون[٦٧]
مُحْقِبا[٦٨] زُكرة[٦٩] وخبز رقاق وحباقًا[٧٠] وقطعة من نون[٧١]

حديث الأعشى

فيهتف هاتف: «أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر؟»

فيقول الشيخ: «نعم، حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم، أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل.» فيقول الهاتف: «أنا ذلك الرجل، مَنَّ الله علي بعد ما صرتُ من جهنم على شفير، ويئست من المغفرة.» فيلتفت إليه الشيخ هشًّا بشًّا مرتاحًا، فإذا هو بشاب غُرانق[٧٢] وقد صار عشاه حورًا وانحناء ظهره قوامًا، فيقول: «سحبَتْني الزبانية إلى سقر، فرأيت رجلًا في عرصات القيامة يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب:[٧٣] «يا محمد، يا محمد، الشفاعة! الشفاعة! نمت بكذا ونمت بكذا.» فصرخت في أيدي الزبانية: «يا محمد أغثني، فإن لي بك حرمة.» فقال: «يا عليُّ بادِرْه فانظر ما حُرْمَتُه.» فجاء علي بن أبي طالب — صلوات الله عليه — وأنا أُعْتَل[٧٤] كي ألقى في الدرك الأسفل من النار، فزَجَرهم عني وقال: «ما حُرمَتُك؟» فقلت: «أنا القائل:

ألا أيّهذا السائلي أين يممتَ	فإن لها في أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة	ولا من خفي حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب بن هاشم	تُريحي وتلقي من فواضله ندى
أجدك[٧٥] لم تسمع وصاة محمد	نبي الإله حين أوصى وأشهدا:
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	وأبصرت بعد الموت مَنْ قد تزودا
ندمتَ على أن لا تكون كمثله	وأنك لم تُرْصَد[٧٦] لما كان أرصدا[٧٧]

وقد كنت أومن بالله وبالحساب، وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء.» فذهب عليٌّ إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذا أعشى قيس، قد روى مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل.» فقال: هلا جاء في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء، ولكن صَدَّتْه قريش وحُبُّه للخمر. فشفع لي فأُدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرًا، فقرَّت عيناي بذلك، وإن لي منادح[٧٨] في العسل وماء الحيوان، وكذلك من لم يتُب من الخمر في الدنيا لم يُسقها في الآخرة».

حديث زهير بن أبي سُلمى

وينظر الشيخ في رياض الجنة، فيرى قصرين مُنيفَين،[٧٩] فيقول في نفسه: لأبْلُغنَّ هذين القصرين فأسأل لمَنْ هما، فإذا قرب منهما رأى على أحدهما مكتوبًا: (هذا القصر لزهير بن أبي سُلمى المزني)، وعلى الآخر: (هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي)، فيعجب من ذلك ويقول: «هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء، وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غُفر لهما.» فيبتدئ بزهير فيجده شابًّا كالزهرة الجَنِيَّة، كأنه ما لبس جلباب هِرَم، ولا تأفف من البرم،[٨٠] وكأنه لم يقل في الميمية:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولًا — لا أبا لك — يسأم

ولم يقل في الأخرى:

ألم ترني عمرت تسعين حجة وعشرًا تباعًا عشتُها وثمانيا

فيقول: جير جير،[٨١] أنت أبو كعب وبجير! فيقول: نعم. فيقول: بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس هملٌ لا يحسن منهم العمل؟ فيقول: كانت نفسي من الباطل نفورًا، فصادقت ملكًا غفورًا، وكنت مؤمنًا بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم حبلًا نزل من السماء فمَنْ تعلَّق به من سكان الأرض سَلِم، فعلمتُ أنه أمرٌ من أمر الله، فأوصيت بنيَّ وقلت لهم عند الموت: إنْ قام قائم يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه، ولو أدركتُ محمدًا لكنت أول المؤمنين. وقلت في الميمية والسفه ضارب بالجران:[٨٢]

فلا تكتمن الله في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدَّخر ليوم حساب أو يقدم فينقَم[٨٣]

فيقول: ألست القائل:

وقد أغدو على ثُبَة[٨٤] كرام نشاوى[٨٥] واجدين لما تشاء

يجرون البرود وقد تمشَّتْ حميا[٨٦] الكأس فيها والغناء[٨٧]

أفأطلقت لك الخمر كغيرك من أصحاب الخلود، أم حرمتْ عليك مثلما حُرمت على أعشى قيس؟ فيقول زهير: «إن أخا قيس أدرك محمدًا، فوجبت عليه الحجة لأنه بُعث بتحريم الخمر وحظر ما قبح، وهلكت أنا والخمر كغيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء، فلا حجة علي.» فيدعوه الشيخ إلى المنادمة، فيجده من ظراف الندماء، فيسأله عن أخبار القدماء.

حديث عبيد

ثم ينصرف إلى عبيد، فإذا هو قد أُعطي بقاء التأبيد،[٨٨] فيقول: «السلام عليك يا أخا بني أسد.» فيقول: «وعليك السلام — وأهل الجنة أذكياء — لعلك تريد أن تسألني بم غفر لي؟» فيقول: «أجل، وإن في ذلك لعجبًا؟!» فيقول عبيد: «إني دخلت الهاوية وكنت قلت في أيام الحياة:

من يسأل الناس يحرموه وسائِلُ الله لا يخيب

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل ينشد ويخف عني العذاب حتى أُطلقت من القيود والأصفاد، ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة هذا البيت، وإن ربنا لغفور رحيم.»

فإذا سمع الشيخ ما قال ذانك الرجلان طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء.

حديث عدي بن زيد

فيقول لعبيد: ألك علمٌ بعَدِي بن زيد العِبادي؟ فيقول: «هذا منزله قريبًا منك.» فيقف عليه فيقول: «كيف كانت سلامتك على الصراط؟» فيقول: «إني كنت على دين المسيح، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمد، فلا بأس عليه، وإنما التبعة على من سجد للأصنام.» فيقول الشيخ: «لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استُشهد به سيبويه وهو قولك:

أرواح مــودّع أم بــكــور أنتَ فانظر لأي حال تصير

فإنه يزعم أن (أنتَ) يجوز أن تُرفع بفعل مُضمر يفسره قولك (فانظر)، وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردتَه؟» فيقول عدي بن زيد: «دعني من هذه الأباطيل! ولكني كنت في الدار الفانية صاحب قفص، فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها[٨٩] وخيطان[٩٠] نعامها وأسراب ظبائها وعانات[٩١] حمرها، فإن للقنيص لذة.» فيقول الشيخ: «إنما أنا صاحب قلم ولم أكن صاحب خيل، وما يؤمني إذا ركبت طرفًا وأنا كما قال القائل:

لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا فهُمْ ثقال على أكتافها عُنُف

أن يلحقني ما لحق صاحب المتجردة لمَّا حمل على اليحموم! ويجوز أن يقذفني السابح[٩٢] على صخور زمرد فيكسر لي عضدًا أو ساقًا، فأصير ضحكة في أهل الجنان!» فيبتسم عدي ويقول: «ويحك! أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم ولا تنزل بسكتها النقم؟» فيركبان سابحين في خيل الجنة، مركب كل واحد منهما لو عدل بممالك العاجلة من أولها إلى آخرها لرجح بها وزاد في القيمة عليها، فإذا نظرا إلى صوار[٩٣] ترتع في رياض الفردوس، صوب الشيخ الرمح لأخنس[٩٤] ذيال،[٩٥] فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر، قال: «أمسك رحمك الله، فإني لست من وحش الجنة التي أنشأها الله سبحانه ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنت أروض في بعض القفار فمر بي ركب مؤمنون قد كرى[٩٦] زادهم، فصرعوني واستعانوا بي على السفر، فعوضني الله بأن أسكني في الخلود.» فيكف عنه الشيخ، ويعمد لعلج وحشي ما التلف عنده بمخشي، فإذا صار الخرص[٩٧] منه بقدر أنملة قال: «أمسك يا عبد الله، فإن الله أنعم علي ورفع عني البؤس، وذلك أني صادني صائد بمخلب وكان إهابي[٩٨] له كالسلب،[٩٩] فباعه في بعض الأمصار، فاتخذ منه غرب[١٠٠] شفى بمائه الكرب وتطهر بنزيعه[١٠١] الصالحون، فشملتني بركة من أولئك فدخلت الجنة أُرزق فيها بغير حساب.» فيقول الشيخ: «فينبغي أن تتميزن، فما كان منكن دخل الفانية فما يجب أن يختلط بوحوش الجنة، فيقول ذلك الوحشي: «لقد نَصَحْتنا نُصْحَ الشفيق، وسوف نمتثل ما أمرتَ».

حديث الهذلي

وينصرف مولاي الشيخ وصاحبه عدي، فإذا هما برجل يحتلب ناقة في إناء من ذهب، فيقولان: مَنِ الرجل؟! فيقول: أبو ذؤيب الهذلي، فيقولان: «حييت وسعدت، أنحتلب مع أنها من لبن!» فيقول: لا بأس، إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما القنص، وإني ذكرت قولي في الدهر الأول:

وإن حديثًا منك لو تعلمينه ... جنى النحل في ألبان عوذ[١٠٢] مطافل
مطافيل أبكار حديث نتاجها ... تشاب بماء مثل ماء المفاصل[١٠٣]

فقيض الله بقدرته لي هذه الناقة مطفلًا، فقمت أحتلب على العادة وأريد أن أشوب ذلك بضرب[١٠٤] نحل، فإذا امتلأ إناؤه من الرسل[١٠٥] كوَّن البارئ — جلت عظمته — خلية من الجوهر رتع ثَوْلُها[١٠٦] في الدهر، فاجتنى ذلك أبو ذؤيب ومزج حليبه، فيقول: ألا تشربان؟ فيجرعان من ذلك المحلب جرعًا لو فرقت على أهل سقر لفازوا بالخلد. فيقول عدي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

حديث النابغتين

ويمضي في نزهته تلك بشابين يتحادثان كل واحد منهما على باب قصر من دُرٍّ، قد أعفي من البؤس والضر، فيُسلم عليهما ويقول: «من أنتما — رحمكما الله — وقد فعل؟» فيقولان: نحن النابغتان نابغة بني جعدة ونابغة بني ذبيان. فيقول — ثبت الله وطأته: «أما نابغة بني جعدة فقد استوجب ما هو فيه بالحنيفية،[١٠٧] وأما أنت يا أبا أمامة فما أدري ما جهتك!» فيقول الذبياني: إني كنت مقرًّا بالله وحججت البيت في الجاهلية، ألم تسمع قولي:

فلا لعمر الذي قد زرته حججًا[١٠٨]
وما هريق[١٠٩] على الأنصاب[١١٠] من جسد[١١١]
والمؤمن العائذات[١١٢] الطير تمسحها[١١٣]
ركبان مكة بين الغيل[١١٤] والسند[١١٥]

وقولي:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة		وهل يأثمن ذو أمة[١١٦] وهو طائع
بمصطحبات من لصاف[١١٧] وثَبْرة[١١٨]		يردن إلالا[١١٩] سيرهن تدافع[١٢٠]

ولم أدرك النبي ﷺ فتقوم الحجة عليَّ بخلافه، وإن الله تقدست أسماؤه يغفر ما عظم وقَلَّ.

فيقول: «يا أبا سوادة ويا أبا أمامة ويا أبا ليلى، اجعلوها ساعة منادمة، فإن من قول شيخنا العبادي:

أيها القلب تعلل بدَدَن[١٢١]		إن همي في سماع وأذن
وشراب خسرواني إذا		ذاقه الشيخ تَغَنَّى وارجحن[١٢٢]

فكيف لنا بأبي بصير؟» فلا تتم الكلمة إلا وأبو بصير قد خمسهم،[١٢٣] فيُسبحون الله ويقدسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو هذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾، فإذا أكلوا من طيبات الجنة وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتقين قال الشيخ: «يا أبا أمامة، إنك لخصيف[١٢٤] الرأي لَبِيب، فكيف حسن بك لُبُّك أن تقول للنعمان بن المنذر:

زعم الهمام بأن فاها بارد		عذب إذا ما ذقته قلت ازدد
زعم الهمام — ولم أذقه — بأنه		يُشفَى ببرد لثاتها العطش الصدي[١٢٥]

ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة»، فيقول النابغة بذكاء وفَهْم: «لقد ظلمني من عاب عليَّ! ولو أنصفني لعلم أنني احترزت أشد احتراز، وذلك أن النعمان كان مستهترًا[١٢٦] بتلك المرأة، فأمرني أن أذكرها في شعري، فأدرت ذلك في خلدي، فقلت: «إن وصفتها وصفًا مطلقًا جاز أن يكون بغيرها معلقًا.» وخشيت أن أذكر اسمها في النظم فلا يكون ذلك موافقًا للملك؛ لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم. فرأيت أن أسند الصفة إليه فأقول: (زعم الهمام)؛ إذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتي على المشاهدة، والأبيات التي جاءت بعدُ داخلة في وصف الهمام، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل. وكيف ينشدون: وإذا نظرت رأيت أقمر مشرقًا وما بعده؟» فيقول الشيخ:

«ينشد وإذا نظرت وإذا لمست وإذا طعنت وإذا نزعت على الخطاب.» فيقول النابغة: «قد يسوغ هذا، ولكن الأجود أن تجعلوه أخبارًا عن المتكلم؛ لأن قولي (زعم الهمام) يؤدي معنى قولنا قال الهمام، فهذا أسلم؛ إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه. وإذا جعلتموه على الخطاب قبح، وإن نسبتموه إلي فهو مندية، وإن نسبتموه إلى النعمان فهو ازراء وتَنَقُّص».

فيقول: «لله دَرُّك يا كوكب بني مُرة! ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة، وكيف لي بأبوي عمرو المازني والشيباني وأبي عبيدة وعبد الملك وغيرهم من النقلة، لأسألهم كيف يروون، وأنت شاهد، لتعلم أني غير المتخرص[١٢٧] ولا الولاغ»،[١٢٨] فلا يقر هذا القول في حذنة[١٢٩] أبي أمامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم، ولا كلفة في ذلك أصابتهم، فيسلمون بلطف ورفق. فيقول: «من هذه الشخوص الفردوسية؟»

فيقولون: «نحن الرواة الذين شئت إحضارهم آنفًا.» فيقول: «لا إله إلا الله! كيف تروون قول النابغة في الدالية، وإذا نظرت وإذا لمست وإذا طعنت وإذا نزعت، أبفتح التاء أم بضمها؟» فيقولون: بفتحها. فيقول: «هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضم ويُخبر أنه حكاه عن النعمان.» فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فيقول الشيخ: مضى الكلام في هذا يا أبا أمامة، فأنشدنا كلمتك التي أولها:

ألما على الممطورة[١٣٠] المتأبدة[١٣١]	أقامت بها في المربع[١٣٢] المتجردة[١٣٣]
مضمخة بالمسك مخضوبة الشوى[١٣٤]	بدر وياقوت لها متقلدة
كأن ثناياها — وما ذقت — طعمها	مجاجة[١٣٥] نحل في كميت[١٣٦] مبردة
ليقرر بها النعمان عينا، فإنها	له نعمة في كل يوم مجددة[١٣٧]

فيقول أبو أمامة: ما أذكر أني سلكت هذا القريّ قط. فيقول مولاي الشيخ: «إن ذلك لعجب! فمن الذي تطوع فنسبها إليك؟» فيقول: «إنها لم تنسب إلي على سبيل التطوع، ولكن على معنى الغلط والتوهم، ولعلها لرجل من بني ثعلبة بن سعد.» فيقول نابغة بني جعدة: «صحبني شاب في الجاهلية ونحن نريد الحيرة، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه، وذكر أنه ابن ثعلبة، وصادف قدومه شكاة[١٣٨] من النعمان، فلم يصل بها إليه.» فيقول نابغة بني ذبيان: «ما أجدر ذلك أن يكون».

مجلس غناء

ويمر رف[١٣٩] من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لأمر، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم، فيقول: «ما شأنكن؟» فيقلن: «ألهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنُغنِّي لمن فيها من شرب.» فيقول: «على بركة الله القدير»، فينتفضن فيصرن جواري كواعب، يرفلن[١٤٠] في وشي[١٤١] الجنة، وبأيديهن المزاهر[١٤٢] وأنواع ما يلتمس به الملاهي، فيعجب وحق له العجب، وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلت عظمته. فيقول لإحداهن على سبيل الامتحان: «اعملي قول أبي أمامة، وهو هذا القاعد:

أمن آل مية رائح[١٤٣] أو مغتدي[١٤٤] عجلان ذا زاد وغير مزوَّد

ثقيلًا أول.» فتصنعه فتجيء به مطربًا، وفي أعضاء السامع متسربًا، ولو نُحت صنم من أحجار ثم سمع ذلك الصوت لرقص. فيقول: «هلم خفيف الثقل الأول.» فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض[١٤٥] لأقرأن ما ترنم به مريض، فإذا أجادته، قال: عليك بالثقيل الثاني. فتأنى به، فإذا رأى ذلك قال: «سبحان الله، كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب، فصيري إلى خفيف الثقل الثاني فإنك لمجيدة محسنة. ثم يقترح عليها الرمل وخفيفه وأخاه الهزج، فإذا تيقن لها حذاقةً، وعرف منها بالعود لياقةً، هلل وكبَّر وأطال حمد ربه واعتبر وقال: «ويحك، ألم تكرني الساعة إوزة طائرة؟ فمن أين لك هذا العلم؟ لو نشأت بين معبد وابن سريج، لما هجت السامع بهذا الهيج! فكيف نقضت بله الإوز؟ فتقول: «وما الذي رأيت من قدرة بارئك! أنك على سِيف[١٤٦] بحر لا يدرك له عبر،[١٤٧] سبحان من يُحيي العظام وهي رميم».

حديث لبيد

فبينما هم كذلك إذ مر شاب في يده مِحجن[١٤٨] ياقوت، فيُسلِّم عليهم فيقولون: «من أنت؟» فيقول: «أنا لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كليب.» فيقول: «أكرمت أكرمت، لو قلت لبيد وسكتَّ، لشهرت باسمك، فما بالك في مغفرة ربك؟!» فيقول: «أنا بحمد الله في عيش قَصُرَ أن يصفه الواصفون، لا هرام ولا برم».

فيقول الشيخ: «تبارك الملك القدوس، ومن لا تدرك يقينه الحدوس،[١٤٩] كأنك لم تقل في الدار الفانية.

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولم تَفُهْ بقولك:

فمتى أهلك فلا أحفله[١٥٠] بَجلي[١٥١] الآن من العيش بَجل
من حياة قد مللنا طولها وجدير طول عيش أن يمل[١٥٢]

فأنشدنا ميميتك المعلقة.» فيقول: «هيهات! إني تركت الشعر في الدار الخادعة، ولن أعود إليه في الدار الآخرة وقد عُوِّضت ما هو خير وأبر».

فيقول: أخبرني عن قولك:

ترَّاكُ أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامُها

هل أردت ببعض معنى كل؟ فيقول لبيد: «كلا، إنما أردت نفسي، وهذا كما تقول للرجل: إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالًا. وأنت تعني نفسك في الحقيقة، وظاهر الكلام واقع على كل إنسان، وعلى كل فرقة تكون بعضًا للناس».

فيقول: «أخبرني عن قولك: أو يرتبط؛ هل مقصدك إذا لم أرضها أو لم يرتبط، أم غرضك أترك المنازل أو يرتبط فيكون يرتبط كالمحمول على قولك تراك أمكنة؟» فيقول لبيد: «الوجه الأول أردتُ».

ويخطر له غناء القيان بالفسطاط ومدينة السلام، ويذكر ترجيعهن بميمية المخبَّل السعدي، فتندفع تلك الجواري التي نقلتهن القدرة من خلق الطير إلى خلق الحور، تلحن قول المخبل السعدي:

ذكر الرباب وذكرها سقم وصبا، وليس لمن صبا عزم
وإذا ألم خيالها طرفت عيني فماء شؤونها[١٥٣] سجم[١٥٤]

كاللؤلؤ المسجور[١٥٥] توبع في سلك النظام فخانه النظم[١٥٦]

فلا يمر حرف ولا حركة إلا ويوقع مسرة لو عدلت بمسرات أهل العاجلة منذ خلق الله آدم إلى أن طوى ذريته، لكانت الزائدة على ذلك زيادة اللج المتموج على دمعة الطفل، والهضب[١٥٧] الشامخ على الهباءة،[١٥٨] ويقول لندمائه: «ألا تسمعون قول السعدي:

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم:
«إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرُب[١٥٩] يومه العدم»
ولئن بنيت لي المشقّر[١٦٠] في عنقاء[١٦١] تقصر دونها العصم[١٦٢]
لتنقبن عني المنية أن الله ليس كحكمه حكم»[١٦٣]

فيقول: «إنه المسكين قال هذه الأبيات وبنو آدم في دار المحن والبلاء والوالدة تخاف المنية على الولد، والفقر يرهب ويتقى والمال يطلب ويستبقى. ف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.[١٦٤] فتبارك الله القدوس، نَقَلَ هؤلاء المُسمِعات[١٦٥] من زي ربات الأجنحة[١٦٦] إلى زي ربات الأكفال المُترجِّحة،[١٦٧] ثم ألهَمَهنَّ بالحكمة حِفْظَ أشعار لم تَمْرُرْ قبلُ بمسامعهنَّ، فجئنَ بها مُتْقَنة محمولة على الطرائق مُلحَّنة! ولقد كانت الجارية في الدار العاجلة إذا تُفرِّست فيها النجابة وأُحضِرت لها الملحنة لتلقي إليها ما تعرف من ثقيل وخفيف، تقيم معها الشهر والشهرين قبل أن تُلقن بيتًا من الغزل أو بيتين، ثم تعطى المئة أو المئتين، فسبحان القادر!»

مشاجرة الجعدي والأعشى

ويقول نابغة بني جعدة وهو جالس يستمع: «يا أبا بصير، أهذه الرباب التي ذكرها السعديُّ هي ربابك التي ذكرتها في قولك:

بعاصي العواذل طلق اليدين يعطي الجزيل ويرخي الإزارا
فما نطق الديك حتى ملأ تُ كوب الرباب له فاستدارا
إذا انكبَّ أزهرُ[١٦٨] بين السقا ة تراموا به غَرَبًا أو نضارا[١٦٩]

فيقول أبو بصير:[١٧٠] «قد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الفند،[١٧١] فبقيت على فندك[١٧٢] إلى اليوم! أما علمت أن اللواتي يسمَّين بالرباب أكثر من أن يُحصين؟ أفتظن أن الرباب هذه هي التي ذكرها القائل:

مـا بـال قـومـك يـا ربـابُ   خُـزْرا[١٧٣] كـأنـهـم غـضـاب
غـاروا عـلـيـك وكـيـف ذا   ك ودونك الـخـرق[١٧٤] الـيـبـاب[١٧٥]
أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله: وجـارتـهـا أم الـربـاب بـمـأسـل

فيقول نابغة بن جَعدة: «أتكلمني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضبيعة، وقد متَّ كافرًا وأقررت على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيت النبي ﷺ فأنشدته كلمتي التي أقول فيها:

بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا[١٧٦]   وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرًا[١٧٧]

فقال لي: «إلى أين يا أبا ليلى؟» فقلت: «إلى الجنة بك يا رسول الله.» فقال: «لا يفضض الله فاك».

أغرَّكَ أن عَدَّكَ بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة، وكذب مفضلك، وإني لأَطْوَلُ منك نَفَسًا، وأكثر تصرُّفًا، ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي، وأنت لاهٍ بعفارتك[١٧٨] تفتري على كرائم قومك، وإن صدقت فخزيًا لك ولمقارك».[١٧٩]

فيغضب أبو بصير فيقول: «أتقول هذا وإن بيتًا مما بنيت لَيعدل بمئة من بنائك؟ وإن أسهبت في منطقك فإن المسهب كحاطب الليل، وإني لفي الجُرثومة[١٨٠] من ربيعة الفرس، وهل جعدة إلا رائدة ظليم[١٨١] نفور؟ أتعيرني مدح الملوك يا جاهل، ولو قدرت على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك؟ ولكنك خلقت جبانًا، لا تدلج[١٨٢] في الظلماء الداجية ولا تهجّر[١٨٣] في الوديقة[١٨٤] الصاخدة».[١٨٥]

فيقول الجعدي: «اسكت يا ضُل بن ضُل، فأُقسم أن دخولك الجنة من المنكرات، ولكنَّ الأقضية جرتْ كما شاء الله، لَحَقُّك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صَلِي بها مَن هو خير منك، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلتُ إنه غلط بك! ألستَ القائل:

فـدخـلـتُ إذ نـام الـرقـيـبُ   فـبـتُّ دون ثـيـابـهـا

حتى إذا ما استرسلت   للنوم بعد لِعابها[186]
قسمتُها نصفين   كل مسوّد[187] يرمي بها[188]
فثنيت جيد غريرة[189]   ولمست بطن حِقابها[190]
كالحقة[191] الصفراء صا   ك[192] عبيرها[193] بملابها[194]
وإذا لها تامورة[195]   مرفوعة لشرابها[196]

واستقللتَ ببني جعدة وليوم من أيامهم يرجح بمساعي قومك، وزعمتَني جبانًا وكذبتَ، لأنا أشجع منك ومن أبيك، وأصْبَر على إدلاج المظلمة ذات الأريز،[197] وأشد إدلاجًا في الهاجرة أم الصخدان.»[198] ويثبُ نابغةُ بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من ذهب.

فيقول الشيخ — أصلح الله به: لا عربدة[199] في الجنان، إنما يُعرف ذلك بين السفلة والهجاج،[200] وإنك يا أبا ليلى لمتترع،[201] ولولا أن في الكتاب الكريم: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لَظَنَنَّاك أصابك نزف في عقلك. ويريد أن يُصلح بين الندماء فيقول: «يجب أن يُحذر من مَلَكٍ يعبر، فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يَجرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهانِ، واستغنى ربنا أن تُرفع الأخبار إليه، ولكن جرى ذلك مجرى الحَفَظة في الدار العاجلة. أما علمتما أن آدم خرج من الجنة بذنب حقير! فغير آمن من ولد أن يقدر له مثل ذلك، فسألتك بالله يا أبا بصير: هل يهجس لك تمني المدام!» فيقول: «كلا والله، إنها عندي كمثل المقر لا يخطر ذكرها بالخلد، فالحمد لله الذي سقاني عنها[202] السُّلوانة».[203]

فيقول: «يا أبا ليلى، إن الله — جلَّت قدرتُه — مَنَّ علينا بهؤلاء الحور العين اللواتي حولهن عن خلق[204] الإوز، فاختر لنفسك واحدة منهن، فلتذهب معك إلى منزلك تلاحنك أرق اللحان وتُسمعك ضروب الألحان.» فيقول لبيد بن ربيعة: «إن أخذ أبو ليلى قينة وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها في الجنة، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز.» فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيام.

ويفترق أهل ذلك المجلس بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافًا كثيرة.

عُوران قيس

فبينما هو يطوف في رياض الجنة لقيه خمسة نفر على خمسة أينق فيقول: «ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان، فمن أنتم خلَّد الله عليكم النعيم؟» فيقولون: «نحن عوران[٢٠٥] قيس، تميم بن مقبل العجلاني، وعمرو بن أحمد الباهلي، والشماخ معقل بن ضرار، وراعي الإبل عبيد بن الحصين النميري، وحميد بن ثور الهلالي».

فيقول للشماخ بن ضرار: «لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي وكلمتك التي على الجيم، فأنشدنيهما لا زلت مخلدًا كريمًا.» فيقول: «لقد شغلني عنهما النعيم الدائم، فما أذكر منهما بيتًا واحدًا.» فيقول لفرط حبه الأدب: «لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمت أن كلمتيك أنفع لك من ابنتيك؟ ذكرت بهما في المواطن وشهرت عند راكب السفر والقاطن. وإن القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته عقرب، ولعل تلك شانته وما زانته، وأصابها في الجاهلية سباء[٢٠٦] وما وفر لأجلها الحِباء،[٢٠٧] وإن شئت أن أنشدك قصيدتيك فإن ذلك ليس بمتعذر علي.» فيقول: «أنشدني، ضفت عليك نعمة الله» فينشده:

عفا من سليمى بطن قوّ فعالز فذات الغضا فالمشرفات النواشز[٢٠٨]

فيجده بها غير عليم، ويسأله عن أشياء منها فيصادفه بها غير بصير، فيقول: «شغلتني لذائذ الخلود عن تعهُّد هذه المنكرات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ❋ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إنما كنت أسِقُ[٢٠٩] هذه الأمور وأنا آمل أن أُفقر[٢١٠] بها ناقة أو أُعطى كيل عيالي سنة، وأنا الآن في تفضُّل الله أغترف في مرافد المسجد من أنهار اللبن، فتارة ألبان الإبل، وتارة ألبان البقر، وإن شئت لبن الضأن فإنه كثير جم، وكذلك لبن المعيز، ولقد أراني في دار الشقوة أجهد أخلاف شياه لجبات[٢١١] لا يمتلئ منهن القعب.»[٢١٢] فيقول الشيخ: «فأين عمرو بن أحمر؟» فيقول عمرو: «ها أنا ذا.» فيقول: «أنشدني قولك:

بان الشباب وأخلف العَمر وتغير الإخوان والدهر

فقد اختلف الناس في تفسير (العَمر) بالفتح، فقيل إنك أردت البقاء، وقيل إنك أردت الواحد من عمور الأسنان وهو اللحم الذي بينها.» فيقول عمرو متمثلًا:

«خذا وجه هرشي[٢١٣] أَوْقِفاها، فإنه كلا جانبي هرشي لهن طريق

ولم تترك فيَّ أهوال القيامة غبرا للإنشاد، أما سمعت الآية: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾؟
وقد شهدت الموقف، فالعجب لك إذا بقي معك شيء من روايتك.» فيقول له الشيخ: «إني كنت أخلص الدعاء في أعقاب الصلوات قبل أن أنتقل من تلك الدار، أن يمنعني الله بأدبي في الدنيا والآخرة. فأجابني إلى ما سألت وهو الحميد المجيد.» ثم يذكر له أشياء من شعره، فيجده عن الجواب مستعجمًا.

حكاية تميم بن أُبي

فيقول أيكم تميم بن أُبي؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول: أخبرني عن قولك:

يا دار سلمي خلاء لا أكلفها إلا المرانة حتى تسأم الدنيا

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: إنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم أَمَة، وقيل: العادة. فيقول تميم: «والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أني حُوسبت حسابًا شديدًا. وقيل لي: كنت فيمن قاتل علي بن أبي طالب، وانبرى إلى النجاشي الحارثي، فما أفلت من اللهب حتى سفعني[٢١٤] سفعات، وإن حفظك لمبقي عليك كأنك لم تشهد أهوال الحساب. ومنادي الحشر يقول: «أين فلان ابن فلان.» والشوس[٢١٥] الجبابرة من الموك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التيجان يصرن بألسنة من الوَقود، فتأخذ في فروعهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء، هل من عُذر يقام، والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون[٢١٦] في سلال النار ويقولون: «نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأياد، فلا فادي ولا معين. فهتف داع من قِبَل العرش: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ لقد جاءتكم الرسل في زمان بعد زمان، وبذلت

لكم ما وكد من الإيمان، وقيل لكم في الكتاب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. فكنتم في لذات الساخرة[٢١٧] واغلين،[٢١٨] وعن أعمال الآخرة متشاغلين. فالآن ظهر النبأ؛ لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد».

هوامش

(١) مملوء.

(٢) مثاب.

(٣) جمع معراج، وهو السُّلم أو المصعد، بكسر الميم وفتحها.

(٤) مأثور – مختار – مصطفى – محبوب.

(٥) ظليل.

(٦) تنتزع – تحرك – تطير.

(٧) الجرعة.

(٨) الخيبة، الفشل، ضياع الفرصة.

(٩) جمع جعفر، وهو النهر الكبير.

(١٠) الرحيق هو أطيب وأفضل أنواع الخمر.

(١١) إكثار.

(١٢) الذهب.

(١٣) ثوب أبيض غليظ من الكتان.

(١٤) تحير – دهش.

(١٥) اشتد فزعه.

(١٦) ضعف عقله.

(١٧) كنية علقمة الفحل.

(١٨) يشير بذلك إلى قوله:

كأن إبريقهم ظبي برابية   مجلل بسبا الكتان مفدوم

(١٩) بقلة رملية حامضة.

(٢٠) هنة في الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد، أو نبات له حب يتخذ منه طعام، والغرض هنا التحقير.

(٢١) قديمي.

(٢٢) مال.

(٢٣) جمع قازوزة وهي قدح الشرب.

(٢٤) أذهب ثروتي قديمها وحديثها أدماني معاقرة الخمر.

(٢٥) جمع أرب.

(٢٦) المائية.

(٢٧) البرية.

(٢٨) هو أبو نواس.

(٢٩) الماء القليل، وقيل: هي الماء الصافي قَلَّ أو كثر، والمقصود هنا المعنى الأول.

(٣٠) متصلة بها أو منسوبة إليها.

(٣١) مرض شديد الوطأة والخطر.

(٣٢) آجن، أي: متغير الطعم واللون.

(٣٣) العسل.

(٣٤) يشابه.

(٣٥) الحنظل.

(٣٦) خبزًا.

(٣٧) المن هو كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلًا ويجف جفاف الصمغ.

(٣٨) المر – الصبر – الحامض.

(٣٩) هو أحمد بن الحسين المتنبي الشاعر المعروف.

(٤٠) هذا البيت من قصيدة للمتنبي ارتجلها في صباه حين أهدى إليه عبيد الله بن خلكان هدية فيها سمك من سكر ولوز في عسل، وأولها:

قد شغل الناس كثرة الأمل　　وأنت بالمكرمات في شغل

ومنها:

هدية ما رأيت مهديها　　ألا رأيت العباد في رجل

أقل ما في أقلها سمك   يسبح في بركة من العسل

(٤١) الغارب: هو الكاهل أو ما بين السنام إلى العنق، والمقصود به هنا سطح البحر.

(٤٢) أخو ثمالة: هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد صاحب كتاب الكامل، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

سألنا عن ثمالة كل حي   فقال القائلون: ومن ثمالة؟
فقلت: محمد بن يزيد منهم   فقالوا: الآن نزدهم جهالة!

(٤٣) أخو دوس: هو أبو بكر محمد بن دريد.

(٤٤) أحمد بن يحيى: هو المشهور بتغلب النحوي اللغوي، وكان بينه وبين المبرد منافاة.

(٤٥) غسلت.

(٤٦) هو الأصمعي.

(٤٧) متلطفًا – مترفقًا، وقيل المرتفق هو المتكئ على المرفق.

(٤٨) خمرًا.

(٤٩) لذيذة الطعم – فيها مزازة.

(٥٠) إناؤها، وقيل الراووق هو ما يخرج من ثقب الدن.

(٥١) مبتل – ند يترشف نداه – دائم الندى.

(٥٢) جمع نطفة وهي الماء الصافي قل أو كثر – وهي ماء الرجل، ومعناها هنا أنه مشرق الوجه جميل الطلعة لكثرة ماء وجهه.

(٥٣) مدرب.

(٥٤) قيل هو العود، شبه صوته بصوت الصنج دعاه فأجابه.

(٥٥) نوع معروف من آلات الطرب.

(٥٦) صرف من شدة إلى لين.

(٥٧) هي المتفضلة في ثوب واحد، أي المتوشحة به مخالِفة بين أطراف ثوبيه على عاتقها — وقيل هي التي عليها ثوب بلا درع أو التي تحت درعها أزار.

(٥٨) صفق الشراب: نقله من إناء إلى إناء.

(٥٩) العسل الأبيض.

(٦٠) يصك بعضها بعضًا.

(٦١) تحيا بعد الموت.

(٦٢) جملًا كريمًا.

(٦٣) معتدل لا حر فيه ولا برد.

(٦٤) يسير سيرًا سريعًا وخفيفًا.

(٦٥) هو الأعشى.

(٦٦) نوع من سير الإبل.

(٦٧) العذيب والصيبون: مكانان ببلاد العرب.

(٦٨) واضعًا في حقيبتي.

(٦٩) زقًّا صغيرًا للخمر.

(٧٠) جرزة البقل.

(٧١) النون السمك، ومعنى الأبيات: أنه يُبدي شوقه الشديد إلى ركوب ناقته مسرعة به في رحلتها نحو العذيب والصيبون، وقد وضع في حقيبته زق خمر صغيرًا وخبز رقاق وحزمة من القت وقطعة من السمك، وهذا هو كل زاده الشهي في تلك الرحلة الجميلة التي يتوق إليها.

(٧٢) جميل.

(٧٣) الأوب الطريق، ومن كل أوب: أي من كل طريق أو من كل جهة.

(٧٤) أجر بعنف.

(٧٥) أجدك — بفتح الجيم وكسرها، أي: أبجد منك هذا، وهو منصوب على نزع الخافض.

(٧٦) أرصد الرقيب: أي نصبه على الطريق.

(٧٧) معنى الأبيات: أيها السالي أين تذهب بي ناقتي، إنها ذاهبة إلى يثرب، إلى محمد بن عبد الله، وقد أقسمت لا أريحها ولا أشفق عليها مهما عانت من الإنضاء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبي الكريم، فإذا انتهت إلى بابه رأت من كرمه وفواضله ما ينسيها كل ما لقيته من الجهد والنصب، ألم يبلغك بربك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذي حفزني إلى لقائه، لقد حث على التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامي، وبين مآل المتهاونين في تنفيذ تلك الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق

المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما يزف من الخير في الدار الآخرة إلى من أطاعه وعمل بنصائحه في الدار الأولى.

(٧٨) جمع مندوحة: أي سعة أو غنية.

(٧٩) عاليين.

(٨٠) البرم: من لا يلعب الميسر لبخله، وكان ذلك من المثالب عند العرب.

(٨١) نعم نعم.

(٨٢) الجران: مقدم عنق الناقة والضرب بالجران كناية عن الإقامة.

(٨٣) اتركوا الرياء فلا فائدة منه، ولا تخفوا ما تضمرون، فإن الله عليم بذات الصدور، ومجاز كل إنسان بما يضمره عاجلًا أو آجلًا.

(٨٤) جماعة.

(٨٥) سكارى.

(٨٦) حميا الكأس: سورتها وشدتها، أو أسكارها وأخذها بالرأس.

(٨٧) معنى البيتين: ويا رب مجلس أنس غدوت إليه فنعمت فيه بمنادمة إخوان كرام صفا بهم وقتنا، واكتمل بجمعهم أنسنا، ولم ينقصنا شيء من مجلبات السرور، وقد تمكنت سورة الخمر من رءوس هؤلاء الندامى فمشوا مترنحين يختالون في أبرادهم.

(٨٨) الخلود.

(٨٩) الصيران جمع صيار، وهي لغة في صوار، والصوار بالضم (ويكسر): القطيع من بقر الوحش.

(٩٠) جماعات النعام.

(٩١) العان: القطيع من حمر الوحش.

(٩٢) الحصان الذي إذا جرى صار كأنه يسبح.

(٩٣) جماعة بقر الوحش.

(٩٤) الحمار الوحشي.

(٩٥) طويل الذيل.

(٩٦) نقص.

(٩٧) السنان أو الرمح القصير.

(٩٨) جلدي.

(٩٩) ما يسلبه الرجل من قرنه.

(١٠٠) الغرب: الدلو العظيمة.

(١٠١) ما يُنتزع من الماء.

(١٠٢) جمع عائذ، وهي القريبة العهد بالنتاج.

(١٠٣) ماء المفاصل: هو الماء بين جبلين من رمل ورضراض، وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها، ومعنى البيتين أن لأحاديثك الجميلة لذة عظيمة أجدها في نفسي، وعذوبة لا يماثلها إلا عذوبة الشهد امتزج بأشهى ألبان الإبل.

(١٠٤) الضرب هو العسل الأبيض.

(١٠٥) اللبن.

(١٠٦) النول جماعة النحل.

(١٠٧) بالإسلام.

(١٠٨) سنين.

(١٠٩) أريق أو صب.

(١١٠) هي الحجارة التي كانوا يذبحون عليها القرابين حول الكعبة، ومفردها: نصب، وهو ما ينصب للعبادة.

(١١١) دم.

(١١٢) الحديثات النتاج.

(١١٣) تتبعها وتمر أيديها عليها بلطف.

(١١٤) الشجر الكثير الملتف.

(١١٥) ما قابلك من الجبل وعلا من السفح، والغيل السند هنا موضعان، وخلاصة معنى البيتين أنه يقسم بالله الذي حج إلى بيته مرارًا، ويقسم بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين وبمن أمن طيور تلك الناحية التي يلاطفها ركبان مكة بين الغيل والسند، ليثبت للنعمان أنه صادق فيما يقول.

(١١٦) دين.

(١١٧) لصاف موضع من منازل بني تميم.

(١١٨) الأرض السهلة.

(١١٩) هزالًا.

(١٢٠) المعنى أن يقسم للنعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الأثر السيئ الذي خلفته وشايات أعدائه، ويؤكد له أنه بار في قسمه وأنه غير حانث في يمينه.

(١٢١) الددن أو الدد: اللهو أو اللعب.

(١٢٢) اهتز وتمايل، والمعنى: الْهُ أيها القلب وانْسَ همومك؛ فإنك مولَع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسرواني الذي ينسي الشيخ — حين يشربه — وقار شيخوخته فيتمايل من النشوة راقصًا مغنيًا.

(١٢٣) صار خامسهم.

(١٢٤) سديد أو محكم.

(١٢٥) الشديد الظمأ، والمعنى: أن الملك النعمان حكى لنا أن رضاب زوجه المتجردة لذيذ المجتنى حلو الطعم، كلما ارتشفته ازددت هيامًا به واندفاعًا إلى رشفه، فإذا تذوقته وقد أجهدك العطش زال ظمؤك وثلج صدرك، ذلك هو ما يحكيه لنا المليك أرويه عنه وإن كنت لم أذقه.

(١٢٦) متفانيًا في حبها.

(١٢٧) الكاذب.

(١٢٨) الكثير الولوغ من ولغ الكلب في الإناء، وهي هنا بمعنى الرجل الذي لا حياء فيه.

(١٢٩) أذن.

(١٣٠) الأرض التي أصابها مطر.

(١٣١) التي سكنها الوحوش.

(١٣٢) محل الإقامة في الربيع.

(١٣٣) اسم امرأة.

(١٣٤) الأطراف، ومخضوبة الشوى: أي ملونة أطرافها بالحناء.

(١٣٥) ريق.

(١٣٦) خمر.

(١٣٧) عرجا على تلك الأرض التي جادها الغيث بسقياه؛ حيث تقيم المتجردة زوج النعمان التي ينعم بحسنها الدائم التجدد كل يوم والتي تضمخت بالمسك، وخضبت أطرافها بالحناء، وتلقدت الدر، وماثل طعم ريقها — وإن كنت لم أذقه — شهدًا ممزوجًا بخمر بارد.

وهذه أبيات تبدو عليها مسحة التكلف والبعد عن الأسلوب الجاهلي لمن ينظر إليها بأدنى تأمل، ونرجح أنها من مختلقات الرواة — وما أكثرها — وهي عندنا تقليد غير متقن لدالية النابغة التي وصف فيها المتجردة زوج النعمان، وقد وردت في هذا الكتاب.

(١٣٨) توعكا.

(١٣٩) سرب.

(١٤٠) يتخايلن أو يتبخترن.

(١٤١) حرير.

(١٤٢) جمع مزهر، وهو نوع من آلات الطرب.

(١٤٣) عائد وقت المساء.

(١٤٤) ذاهب وقت الغداة، أي الضحى.

(١٤٥) المغني الحاذق، وهو هنا اسم مغن معروف.

(١٤٦) السِّيف بكسر السين: الشاطئ.

(١٤٧) العبر الساحل الآخر.

(١٤٨) العصى المنعطفة الرأس كالصولجان.

(١٤٩) الظنون.

(١٥٠) أحفل به.

(١٥١) بجلي من العيش: أي حسبي ما عشته.

(١٥٢) خلاصة معنى البيتين هو: متى واتاني أجلي لم أكترث له، فقد انفضت لباناتي من الدنيا، وحسبي هذا الزمن الطويل الذي عشته متبرمًا بهذه الحياة المملة المسئمة.

(١٥٣) الشؤون مجاري الدموع.

(١٥٤) مسكوب – سائل.

(١٥٥) المنظوم.

(١٥٦) تذكر الرباب فأشجاه ذكرها، وحن إليها فخارت قواه ووهن عزمه، وألمَّ به خيالها فسحتْ عيناه بالدموع كما انفرط عقد من اللؤلؤ المنظوم فتساقط متتابعًا.

(١٥٧) الهضب المرتفع من الأرض، أو الجبل المنبسط، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة.

(١٥٨) الهباءة: القطعة من الهباء، وهو الغبار يشبه الدخان ويرى منبثًّا في ضوء الشمس.

(١٥٩) من باب نَصَر، يشق عليه أو يحزنه ومعناها هنا يكدر أو ينغص عليه يومه.

(١٦٠) مكان ببلاد العرب.

(١٦١) سامقة شديدة العلو، وهي صفة لموصوف محذوف هو كلمة قنة.

(١٦٢) جمع أعصم وهو الوعل.

(١٦٣) معنى الأبيات: تلحاني عاذلتي على كرمي؛ لأنها ترى في الغني كل معاني الراحة والخلود، وترى أن الإنسان إذا صفرت يده من المال اسودَّ عيشه وارتبك أمره. وهذا لعمري رأي مأفون دفعها إليه قصر نظرها وجهلها بالغد، ولو أنها رشدت لعلمت أن كل ما في الدنيا من زخرف وزينة عبث وضلال، وأن الموت سيختم هذه الحياة الخادعة فلا تصده عنا قنة سابقة نلوذ بها في كتف جبل شاهق ولا تفلتنا من قضاء الله حيلة، وإذن فما قيمة المال ندخره ونبخل به؟ ومن لعاذلتي أن تدرك هذه الحقيقة فتعذرني وتكف عن لومي.

(١٦٤) شدة التعب والإعياء.

(١٦٥) المغنيات.

(١٦٦) الطيور.

(١٦٧) النساء.

(١٦٨) الأزهر إبريق الخمر، قال عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعد ما ... ركد الهواجر بالمشوق المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر في الشمال مفدم

أي: شربت الخمر بعد أن سكن قيظ الهواجر الشديد، بالقدح المجلو المنقوش بزجاجة صفراء مخططة قرنتها بإبريق مسدود الرأس بالفدام.

(١٦٩) الغرب الفضة أو القدح أو الجام الفضي والنضار الذهب. ومعنى الأبيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللائمات ويمشي متبخترًا، وأنه نادمه وقت السحر فما أذَّن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس وكان الندامى لفرط سرورهم بالخمر لا يكاد يوضع إبريق مدامة حتى يتراموا به متهافتين على الشراب.

(١٧٠) كنية الأعشى.

(١٧١) الخرف أفن الرأي.

(١٧٢) ضلالك.

(١٧٣) الخزر ضيق العين.

(١٧٤) الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح.

(١٧٥) اليباب الخراب حيث لا يقيم أحد، ومعنى البيتين: «ما الذي أسخط قومك فضاقت أعينهم من الغضب، والنظر الشزر، أيغارون عليك من الأعداء والمغيرين وبينك وبين الناس تلك الصحراء الواسعة التي لا يسكنها إنسان، وهي وحدها كفيلة بحمايتك منهم».

(١٧٦) رفعتنا.

(١٧٧) مكانًا نصعد إليه.

(١٧٨) العفارة: الخبث والنكر، وهي أيضًا تلقيح النخل وإصلاحه. والمقصود هنا المعنى الأول، أي أنك كنت لاهيًا بأضاليلك وأعمالك الشيطانية الخبيثة.

(١٧٩) مواطنك.

(١٨٠) الصميم.

(١٨١) ذكر النعام.

(١٨٢) لا تسير ليلًا.

(١٨٣) لا تسير في الهاجرة.

(١٨٤) شدة الحر في الهاجرة.

(١٨٥) الشديدة القيظ.

(١٨٦) لعبها.

(١٨٧) سيد.

(١٨٨) يحرزها أو يظن به الظنون من أجلها.

(١٨٩) جميلة.

(١٩٠) وسطها.

(١٩١) الحقة: وعاء من خشب أو عاج.

(١٩٢) امتزج – اختلط – لصق.

(١٩٣) العبير: أخلاط من الطيب.

(١٩٤) الملاب: نوع من العطر أو الطيب، قيل هو الزعفران.

(١٩٥) التامورة: الوعاء فيه الخمر أو الإبريق أو الدن.

(١٩٦) معنى الأبيات: تحينتُ غفلة الرقيب فخلت عليها، وما زلت بها حتى استسلمت للنوم بعد أن أخذتْ حظَّها من اللعب، فطويتها تحتي كما يفعل كل سيد جليل القدر بخليلته التي حامت حوله الظنون من أجلها، ونعمتُ بضمها وعناقها، ومتعتُ

نفسي بلمس بطنها وخاصرتها، فكأنما لمست حقًّا من العاج امتزج بطيبة زعفرانه، ثم حضر إبريق الخمر ورفع متهيئًا للشراب.

(١٩٧) الصقيع أو البرد الشديد.

(١٩٨) الصخدان: اليوم الشديد الحر.

(١٩٩) العربدة الإيذاء وسوء الخلق.

(٢٠٠) الحمقى.

(٢٠١) نزوع إلى الشر أو مسرع إلى ما لا ينبغي أو شرير.

(٢٠٢) بدلني منها.

(٢٠٣) العسل.

(٢٠٤) فطرة.

(٢٠٥) جمع أعور.

(٢٠٦) أسر.

(٢٠٧) العطاء.

(٢٠٨) بطن فو وعالز وذات الغضا: أسماء أماكن ببلاد العرب، والمشرفات النواشز: الجبال الشديدة الارتفاع. ومعنى البيت أن كل تلك الأماكن التي ذكرها قد أقفرت من سليمي بعد بيتها.

(٢٠٩) أجمع.

(٢١٠) أعطي أو أمنح.

(٢١١) قليلة اللبن.

(٢١٢) القدح الغليظ الضخم.

(٢١٣) هرشي ثنية في طريق مكة قريبة منها. ومعنى البيت: خذا وجه الصواب، فإن كلا التأويلين صحيح.

(٢١٤) لطمني.

(٢١٥) الشجعان الجريئون على القتال.

(٢١٦) يتضورون أو يصيحون صياح الضعفاء المستخذين.

(٢١٧) الدنيا.

(٢١٨) ممعنين ومسرعين أي منغمسين في لذائذها.

حكاية ابن القارح

فيقول (الشيخ): أنا أقص عليك قصتي: لما نهضت أنتفض من الرَّيْم،[1] وحضرت عرصات[2] القيامة، ذكرت الآية: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۞ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. فطال علي الأمد واشتد الظمأ والحر، وأنا رجل مهياف،[3] فافتكرت فرأيت أمرًا لأقوام لمثلي به، ولقيني الملك الحفيظ بما زَبرَ[4] لي من فعل الخير، فوجدت حسناتي قليلة كالرياض في العام الأرمل،[5] إلا أن التوبة في آخرها كأنها المصباح رُفع لسالك سبيل.

حديثه مع رضوان

فلما أقمت في الموقف زهاء شهر أو شهرين، وخفت من الغَرَق في العَرَق، زينتْ لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتًا في رضوان خازن الجنان، عملتها في وزن: «قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حبيبٍ وعرفان» ووسمتها برضوان، ثم ضانكت[6] الناس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى، فما حفل بي، ولا أظنه أبه لما أقول، فغبرت[7] برهة نحو عشرة أيام من أيام الفانية، ثم عملت أبياتًا في وزن:

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا[8]

ووسمتها برضوان، ثم دنوت منه ففعلت كفعلي الأول، فكأني أحرك ثبيرًا[9] فلم أزل أتتبع الأوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفنيتها، وأنا لا أجد عنده مغوثة، ولا ظننته فهم ما أقول. فلما استقصيت الغرض فما أنجحت، دعوت بأعلى صوتي: «يا رضوان! يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفراديس! ألم تسمع ندائي بك واستغاثتي

إليك؟» فقال: «لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك، فما الذي تطلبه أيها المسكين؟» فأقول: «أنا رجل لا صبر لي على العطش، وقد استطلتُ مدة الحساب، ومعي صك[١٠] بالتوبة، وهي الذنوب كلها ماحية، وقد مدحتك بأشعار كثيرة، ووسمتها باسمك.» فقال: «وما الأشعار؟» فقلت: «الأشعار جَمْعُ شِعر، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس، وكان أهل العاجلة يتقربون به إلى الملوك والسادات، فجئتُ بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدخول، فقد استطلتُ ما الناس فيه، وأنا ضعيف منين،[١١] ولا ريب أني ممن يرجو المغفرة وتصحُّ له بمشيئة الله تعالى.» فقال: «إنك لغبين الرأي، أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات هيهات! وأنى لهم التناوش[١٢] من مكان بعيد!»

حديثه مع زفر

فتركته وانصرفتُ بأملي إلى خازن آخر يقال له: زفر، فعملت كلمة ووسمتها باسمه، في وزن قول لبيد:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقربتُ منه فأنشدتها، فكأني إنما أخاطب ركودًا[١٣] صماء لأستنزل أبودا[١٤] عصماء، ولم أترك وزنًا مقيدًا ولا مطلقًا يجوز أن يوسم بزفر إلا وسمته به، فما نجع. فقلت: «رحمك الله! كنا في الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة، فنجد عنده ما نحب، وقد نظمتُ فيك ما لو جُمع لكان ديوانًا، وكأنك ما سمعت لي كلمة!» فقال: «لا أشعر بالذي قصدتَ، وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد، ولا ينفق[١٥] على الملائكة، إنما هو للجانِّ وعلَّموه ولد آدم، فما بغيتُك؟» فذكرت له ما أريد، فقال: «والله ما أقدر لك على نفعٍ، فمن أين أنت؟» فقلت: «من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.» فقال: «صدقت. ذلك نبي العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض؛ لأن إبليس اللعين نفثه في إقليم العرب، فتعلَّمه نساء ورجال، وقد وجب عليَّ نصحُك، فعليك بصاحبك، لعله يتوصل إلى ما ابتغيتَ» فيئستُ مما عنده.

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب

فجعلتُ أتخلل العالَم، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ. فقلت: «من هذا الرجل؟» فقيل: «هذا حمزة بن عبد المطلب صريعُ وَحْشي، وهؤلاء الذين حوله مَن استشهدوا من المسلمين في أُحُد.» فقلت لنفسي الكذوب: «الشِّعر عند هذا أنفق[١٦] منه عند خازن الجِنان؛ لأنه شاعر وإخوته شعراء، وكذلك أبوه وجَدُّه، ولعله ليس بينه وبين مَعْبَد بن عدنان إلا من نظم شيئًا من موزون»، فعملتُ أبياتًا على منهج أبيات كعب بن مالك التي رَثَى بها حمزة، وأولها:

صفية قُومي ولا تَعجزي　　　وبكي النساء على حمزة

وجئت حتى وليتُ[١٧] منه، فناديت: «يا سيد الشهداء! يا عم رسول الله ﷺ يا ابن عبد المطلب!» فلما أقبل علي بوجهه، أنشدته الأبيات، فقال: «ويحك! أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح؟ أما سمعت الآية: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؟»

فقلت: «بلى، قد سمعتها وسمعت ما بعدها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[١٨] ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.» فقال: «إني لا أقدر على ما تطلب، ولكن أنفذُ معك رسولًا إلى ابن أخي علي بن أبي طالب، ليخاطب النبي ﷺ في أمرك.» فبعث معي رجلًا، فلما قص قصتي على أمير المؤمنين، قال: «أين بَيِّنتُك؟»[١٩]

مقابلة أبي علي الفارسي

وكنتُ قد رأيت في المحشر شيخًا لنا كان يُدرس النحو في الدار العاجلة يُعرَف بأبي علي الفارسي، وقد امترس[٢٠] به قومٌ يطالبونه ويقولون: «تأوَّلتَ علينا وظلمتنا.» فلما رآني أشار إليَّ بيده، فجئتُه، فإذا عنده طبقة منها يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول: «ويحك، أنشدتَ عني هذا البيت برفع «الماء»، يعني قوله:

فليت كفانا كان شرك كله　　　وخيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي[٢١]

ولم أقل إلا الماءَ، وكذلك زعمتَ أني فتحتُ الميم في قولي:

تبدل خليلًا بي كشكك شكله فإني خليلًا صالحًا بك مَقتوي[٢٢]

وإنما قلت: مُقتوي، بضم الميم!

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله. فقلت: «يا قوم، إن هذه أمور هينة، فلا تُعنتوا[٢٣] هذا الشيخ، فإنه ما سفك لكم دمًا، ولا احتجن[٢٤] عنكم مالًا، فتفرقوا عنه.» وشغلت بخطابهم والنظر في حويرهم،[٢٥] فسقط مني الكتاب الذي فيه التوبة، فرجعتُ أطلبه فما وجدته.

حديثه مع علي بن أبي طالب

فأظهرت الوله والجزع، فقال أمير المؤمنين: «لا عليك[٢٦] ألك شاهد بالتوبة؟» فقلت: «نعم، قاضي حلب وعُدولها»[٢٧] فقال: «بمن يعرف ذلك الرجل؟» فأقول: «بعبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب — حرسها الله — في أيام شِبل الدولة.» فأقام هناك هاتفًا يهتف في الموقف: «يا عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدولة! هل معك علم من توبة علي بن منصور بن طالب الحلبي؟» فلم يُجبه أحد، فأخذني الهلع[٢٨] والرعدة، ثم هتف الثانية فلم يجبه مجيب! فطرحت إلى الأرض، ثم نادى الثالثة، فأجابه قائل يقول: «نعم قد شهدت توبة علي بن منصور، وذلك بآخرة من الوقت، وحضرتْ متابه عندي جماعة من العدول وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها».

فعند ذلك نهضت وقد أخذت الرمق[٢٩] فذكرت لأمير المؤمنين — عليه السلام — ما ألتمس، فأعرَض عني وقال: «إنك لتروم ممتنعًا، ولك أسوة بولد أبيك آدم».

وُرُودُه الحوض

وهمتُ بالحوض فكدتُ لا أصِلُ إليه، ثم نغبت منه نغبات[٣٠] لا ظمأ بعدها، وإذا الكفرة يحملون أنفسهم على الورود، فتذودهم[٣١] الزبانية بعصي تضطرم نارًا، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده، وهو يدعو بويل وثبور.[٣٢]

حديثه مع فاطمة

فطفتُ على العترة المنتخَبين، فقلت: «إني كنت في الدار الذاهبة إذا كتبتُ كتابًا وفرغت منه قلت في آخره: «وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى عترته الأخيار الطيبين.» وهذه حرمةٌ لي ووسيلة».

فقالوا: «وما نصنع بك؟» فقلت: «إن مولاتنا فاطمة — عليها السلام — قد دخلتِ الجنة منذ دهر. وإنها تخرج في كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية، فتُسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء، ثم تعود إلى مستقرها في الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة فاسألوها في أمري بأجمعكم، فلعلها تسأل أباها فيَّ.» فلما حان خروجها ونادى الهاتفُ أنْ غُضوا أبصارَكم يا أهل الموقف حتى تَعبُر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه، اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير من ذكور وإناث، ممن لم يشرب خمرًا ولا عَرف قط منكرًا، فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: «ما بال هذه الزُّرافة؟[٣٣] ألكم حال تُذكر؟» فقالوا: «نحن بخير، إنا نلتذ بتحف أهل الجنة. غير أنا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرع إلى الجنة قبل الميقات إذ كنا آمنين ناعمين، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۞ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا[٣٤] وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾».

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة عليها السلام امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: «من هذه؟» فقيل: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى.» ومعها شباب على أفراس من نور. فقيل: «من هؤلاء؟» فقيل: «عبد الله والقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم، بنو محمد ﷺ».

فقالت تلك الجماعة التي سألت: «هذا وَلِيٌّ من أوليائنا قد صحتْ توبته، ولا ريب أنه من أهل الجنة، وقد توسَّل بنا إليك صلى الله عليك — في أن يراح من أهوال الموقف ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز».

فقالت لأخيها إبراهيم — صلى الله عليه — «دونك الرجل.» فقال لي: «تَعلَّقْ بركابي.» وجعلتْ تلك الخيل تَخلَّلُ الناسَ، وتنكشف لها الأمم والأجيال. فلما عظم الزحام، طارت في الهواء، وأنا متعلق بالركاب.

حديثه مع النبي

فوقفت عند محمد ﷺ فقال: «من هذا الأتاوي؟»[٣٥] فقالت: «هذا رجل سأله فيه فلان وفلان.» وسمت جماعة من الأئمة الطاهرين، فقال: «حتى ينظر في عمله.» فسأل في عملي فوجده في الديوان الأعظم، وقد خُتم بالتوبة، فشفع لي، فأذن لي في الدخول.

عبور الصراط

فلما خلصت من تلك الطموش[٣٦] قيل لي: «هذا الصراط فاعبر عليه.» فوجدتُه خاليًا لا عريب[٣٧] عنده، فبلوت نفسي في العبور، فوجدتني لا أستمسك، فقالت الزهراء — صلى الله عليها — لجارية من جواريها: «يا فلانة أجِيزِيه»[٣٨] فجعلتْ تمارسني[٣٩] وأنا أتساقط عن يمين وشمال.

فقلت لها: «يا هذه! إنْ أردتِ سلامتي، فاستعملي معي قول القائل في الدار العاجلة:

سِتّ إنْ أعياك أمري فاحمليني زَقفونَه»

فقالت: «وما زقفونه؟» قلت: «أن يطرح الإنسان يديه على كتفي الآخر، ويمسك بيديه، ويحمله وبطنه إلى ظهره. أما سمعت قول الجلجول من أهل كفر طاب:

صلحت حالتي إلى الخلف حتى صرتُ أمشي إلى الورى زقفونه»[٤٠]

فقالت: «ما سمعت بزقفونه ولا الجلجول ولا كفر طاب إلا الساعة!»

فتحملني وتجوز كالبرق الخاطف، فلما جزتُ، قالت الزهراء — عليها السلام: «قد وَهَبْنا لك هذه الجارية، فخُذها كي تخدمك في الجنان».

حواره مع رضوان

فلما صرتُ إلى باب الجنة، قال لي رضوان: «هل معك من جواز؟» فقلت: «لا.» فقال: «لا سبيل إلى الدخول إلا به».

فبعلت[٤١] بالأمر، وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف. فقلت: «أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى الموقف، فآخذ عليها جوازًا»، فقال: «لا أخرج شيئًا من الجنة إلا بإذن من العلي الأعلى — تقدس وتبارك».

فلما دجرت[٤٢] بالنازلة قلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون! لو أن للأمير أبي المُرَجَّى خازنًا مثلك، لما وصلت أنا ولا غيري إلى درهم من خزائنه!»

دخوله الجنة

والتفت إبراهيم — صلى الله عليه — فرآني وقد تخلفت عنه، فرجع إليَّ، فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة، وكان مقامي[٤٣] في الموقف مدة ستة أشهر من شهور العاجلة، فلذلك بقي على حفظي ما نزفته[٤٤] الأهوال، ولا نهكه تدقيق الحساب.

حديثه مع حميد بن ثور

فأيكم حميد بن ثور؟ فيقولون: «هذا.» فيُسلم عليه الشيخ ويقول: «إيه يا حميد! لقد أحسنت في قولك:

أرى بصري قد رابني بعد صحة   وحسبك داء أن تصح وتسلما
ولن يلبث العصران[٤٥] يوم وليلة   إذا طلبا أن يدركا ما تيمما[٤٦]

فكيف بصرك اليوم؟» فيقول: «إني لأكون في مغارب الجنة فألمح الصديق من أصدقائي وهو بمشارقها، وبيني وبينه مسيرة ألوف أعوام للشمس التي عرفت سرعة سيرها في العاجلة، فتعالى الله القادر على كل بديع».[٤٧]

فيقول الشيخ: لقد أحسنت في الداليَّة التي فيها:

تتابع أعوام عليها هزلنها   وأقبل عام، ينعش الناس، واحد

فيقول حميد: «لقد شغلت عن هذا بما وهب لي ربي الكريم ولا خوف علي ولا حَزَن، ولقد كان الرجل يعمل فكرة السنة والأشهر في الرجل قد آتاه الله الشرف والمال، فربما رجع بالخيبة وإن أعطى فعطاء زهيد، ولكن النظم فضيلة العرب».

حديثه مع لبيد

ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم إلى منزله، ويُقسم عليهم ليذهبن معهم، فيمشون قليلًا، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس في الجنة نظيرها بهاءً وحُسنًا، فيقول لبيد: «أتعرف أيها الأديب الحلبي هذه الأبيات؟ إنها قولي:

إنَّ تقوى[٤٨] ربنا خير نفل[٤٩] وبإذن الله ريثي وعجل
أحمد الله فلا ند له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل[٥٠]

صيَّرها ربي أبياتًا في الجنة أسكنها أخرى الأبد.» فيعجب هو وأولئك القوم، ويقولون: «إن الله قدير على ما أراد!»

مأدبة في الجنة

ويبدو له أن يصنع مأدبة في الجنان، يجتمع فيها من أمكن من شعراء الخضرمة والإسلام، والذين أصَّلوا كلام العرب، وجعلوه محفوظًا في الكتب، وغيرهم ممن يستأنس بالأدب، ويخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة، إذ كان البارئ لا يعجزه — جلت عظمته — أن يأتيهم بجميع الأغراض من غير كلفة ولا إبطاء، فتنشأ أَرْحاء على الكوثر تجعجع لطحن بُر[٥١] الجنة، وإنه لأفضل من بُر الهذلي الذي قال فيه:

لا دَر دري[٥٢] إن أطعمتُ رائدكم قرف[٥٣] الحني[٥٤] وعندي البُر مكنوز[٥٥]

بمقدار تفضل به السموات الأرضين.

ويجس[٥٦] في صدره أرحاء تدور فيها البهائم، فيَمْثُل بين يديه ما شاء الله من البيوت فيها أحجار من جواهر الجنة، تدير بعضها جمال تسوم في عضاة[٥٧] الفردوس، وأينق، وصنوف من البغال والبقر.

فإذا اجتمع من الطَّحن ما يُظن أنه كاف للمأدبة، تفرَّق خدمه من الولدان المخلَّدين، فجاءوا بالجِداء وضروب الطير التي جرتِ العادة بأكلها، وسِيقت البقر والغنم والإبل

لتعتبط، فارتفع يُعار المعز ونواح الضأن وصياح الديكة لعيان المُدية، وذلك كله بحمد الله لا ألم فيه، وإنما هو جد مثل اللعب، فلا إله إلا الله الذي ابتدع خلقه من غير روية[٥٨] وصوره بلا مثال.

فإذا حصلت النحوض[٥٩] فوق الأوفاض،[٦٠] قال: «أحضروا من الجنة الطُّهاة الساكنين بحلب على ممر الأزمان.» فتحضر جماعة كثيرة، فيأمرهم باتخاذ الأطعمة، وتلك لذة يهبها الله — عز سلطانه — بدليل قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فإذا أتت الأطعمة افترق غلمانه الذين كأنها اللؤلؤ المكنون لإحضار المدعُوِّين، فلا يتركون في الجنة شاعرًا إسلاميًّا ولا مُخضرمًا، ولا عالِمًا بشيء من أصناف العلوم ولا متأدِّبًا إلا حضروه، فيجتمع خلق كثير، فتُوضَع الخون[٦١] من الذهب، والفواثير[٦٢] من اللُّجين[٦٣] ويجلس عليها الآكلون، وتُنقل إليهم الصحاف.[٦٤]

مجلس أُنْس وغناء

فإذا قضوا الأرب من الطعام، جاءت السقاة بأصناف الأشربة، والمسمِعات بالأصوات المطرِبة، ويقول: «عليَّ بمن في الجنة من المغنين والمغنيات، ممن كانوا في الدار العاجلة فقضيت له التوبة.» فتحضر جماعة كثيرة من رجال ونساء، فيهم الغريض ومعبد وابن سريج، وإبراهيم الموصلي وابنه إسحق.

حديث الجرادتين[٦٥]

فيقول قائل من الجماعة وقد رأى أسراب[٦٦] قيان قد حضرنَ: «من العجب أن الجرادتين في أقاصي الجنة!»

فإذا سمع ذلك قال: «لا بد من حضورهما.» فيركب بعض الخدم ناقة من نوق الجنة ويذهب إليهما على بُعد مكانهما، فتقبلان على نجيبين أسرع من البرق.

فإذا حصلتا على المجلس، حياهما وبش بهما، وقال: «كيف خلصتما إلى دار الرحمة بعدما خبطتما في الضلال؟!» فتقولان: «قُدرت لنا التوبة، ومتنا على دين الأنبياء والمرسلين».

فيقول: «أحسن الله إليكما، أسمعانا شيئًا من القصيدة الحائية التي تُروى لعبيد مرة، ولأوس أخرى، وما سَمِعتما قط بعبيد ولا أوس فتلهمان أن تغنيا بالمطلوب، فتلحنان:

هبت تلوم وليست ساعة اللاحي[٦٧] هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحي!
قاتلها الله! تلحاني وقد علمت أني لنفسي إفسادي وإصلاحي!
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمنًا فلا محالة يومًا أنني صاح
ولا محالة من قبر بمحنية[٦٨] أوفى مليع[٦٩] كظهر الترس وضاح

فتطربان من سمع، وتستفزان الأفئدة بالسرور، ويكثر حمد الله — سبحانه — كما أنعم على المؤمنين والتائبين، وخلَّصهم من دار الشقوة إلى محل النعيم.»

حديث جران العود النميري

ويلتفت فإذا هو بجران العود[٧٠] النميري، فيحييه ويرحب به، ويقول لبعض القيان: أسمعانا قول هذا المحسن.

حملن جران العَوْد[٧١] حتى وضعنه بعلياء[٧٢] في أرجائها الجن تعزف[٧٣]
وقلن «تمتع ليلة النأي هذه فإنك مرجوم[٧٤] غدًا أو مسيّف»[٧٥]
وأحرزن مني[٧٦] كل حجزة[٧٧] مئزر لهن وطاح[٧٨] النوفلي[٧٩] المزخرف

فتصيب القينة وتُجيد.

فإذا أعجبت الجماعة من إحسانها وإصابتها، قالت: «أتدرون من أنا؟» فيقولون: «لا والله.» فتقول: «أنا أم عمرو التي يقول فيها القائل:

تصب الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا»[٨٠]

فيزدادون بها عجبًا ولها إكرامًا، ويقولون: «لمن هذا الشعر؟ ألعمرو بن عَدِي اللخمي، أم لعمرو بن كلثوم التغلبي؟»

فتقول: «أنا شهدت نَدْماني جذيمة مالكًا وعقيلًا، وصبحتهما الخمر المشعشعة[٨١] لما وجدا عمرو بن عدي، فكنت أصرف الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعل عمرو بن كلثوم حسن بهما كلامه واستزادهما في أبياته».

رقص الحور

ويذكر الأبيات التي تنسب إلى الخليل بن أحمد، والخليل يومئذ في الجماعة، وأنها تصلح لأن يُرقص عليها، فينشئ الله القادر بلطف حكمته، شجرة من الجوز فتونع لوقتها، ثم تنفض عددًا لا يحصيه إلا الله — سبحانه — وتنشقُّ كل واحدة منه عن أربع جوارٍ يَرُقْن الرائين، يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل وأولها:

إن الخليط تصدع[٨٢] فطر بدائك أو قع
لولا جوار حسان مثل الجآزر[٨٣] أربع
لقلت للظاعن اظعن[٨٤] إذا بدا لك أو دع

فتهتز أرجاء الجنة.

ويقول: «لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن؟» فيقول الخليل: «لا أذكر شيئًا من ذلك، ويجوز أن يكون ما قيل حقًّا.» فيقول: «أنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب في عصرك؟» فيقول الخليل: «إن عبور الصراط يَنْفض الخلد[٨٥] مما استودع!»

ويعبر طاوس من طواويس الجنة يروق من رآه حُسنًا، فيشتهيه أبو عبيدة مصوصًا[٨٦] فيتكون كذلك في صحفة من الذهب، فإذا قضى منه الوطر، انضمت عظامه بعضها إلى بعض ثم تصير طاوسًا كما بدا، فتقول الجماعة: «سبحانه من يُحيي العظام وهي رميم، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[٨٧] إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾».

ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون.

حديثه مع الحور

ويخلو بحُوريتين من الحور العين، فإذا بهره ما يراه من الجمال، قال: «أعزز علي بهلاك الكندى إني لأذكر بكما قوله:

كدأبك[٨٨] من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل[٨٩]
إذا قامتا تضوَّع[٩٠] المسك منهما نسيمَ الصبا جاءت بريا[٩١] القَرَنْفُل[٩٢]

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نعمة؟ لَجلسة معكما بمقدار دقيقة من دقائق الدنيا خير من مُلك بني آكل المرار وبني النضر بالحيرة، وآل جفنة ملوك الشام!»

ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها ويقول: «إن امرأ القيس لمسكين مسكين، تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله:

كأن المُدام وصَوْب الغمام وريح الخُزامى ونَشْر القُطُر
يُعَل به بَرْد أنيابها إذا غرَّد الطائر المُسْتَحِر»[٩٣]

فتستغرب إحداهما ضحكًا، فيقول: «مم تضحكين؟» فتقول: «فرحًا بتفضل الله! أتدري من أنا يا علي بن منصور؟» فيقول: «أنتِ من حور الجنان اللواتي خَلقكن اللهُ جزاءً للمتقين، وقال فيكن: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.» فتقول: «أنا كذلك بإنعام الله العظيم! على أني كنت في الدار العاجلة أُعرف بحمدونة، وأسكن في باب العراق بحلب، وأبي صاحب رَحى، وتزوجني رجل يبيع السَّقط، فطلقني لرائحة كرهها مِن فيِّ، وكنتُ من أقبح نساء حلب، فلما عرفتُ ذلك زهدتُ في الدنيا، وتوفرتُ على العبادة، وأكلتُ من مغزلي ومزدني، فصيَّرني ذلك إلى ما ترى!»

وتقول الأخرى: «أتدري مَن أنا يا علي بن منصور؟ أنا توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد، على زمان أبي منصور محمد بن علي الخازن، وكنت أُخرج الكتب إلى النساخ».

فيقول: «لا إله إلا الله! لقد كنتِ سوداء، فصرتِ أنصع من الكافور!» فتقول: أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين:

لو أن من نوره مثقال خردلة   في السود كلهم، لابيضت السود

حدائق الحور

ويمر مَلَكٌ من الملائكة فيقول: «يا عبد الله! أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ❋ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ❋ عُرُبًا أَتْرَابًا ❋ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾».

فيقول المَلَك: «هُنَّ على ضربين، ضَرْب خلقه الله في الجنة لم يُعرف غيرها، وضَرْب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل الأعمال الصالحة».

فيقول وقد عجب مما سمع: «فأين اللواتي لم يكنَّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميزن من غيرهن؟»

فيقول المَلَك: «اقْفُ أثري.» فيتبعه فيجيء به إلى حدائق لا يعرف كُنْهَها إلا اللهُ، فيقول المَلَك: «خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسِرْها، فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور».

فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة، أو ما شاء الله من الثمار فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء عيناء، تبرق لحسنها حوريات الجنان، فتقول: «من أنت يا عبد الله؟» فيقول: «أنا فلان ابن فلان.» فتقول: «إني أمنى بلقائك قبل أن يَخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة.» فعند ذلك يسجد إعظامًا لله القدير، ويقول: «هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأت. بَلْهَ[٩٤] ما اطلعتم عليه».

ويخطر في نفسه، وهو ساجد، أن تلك الجارية — على حسنها — ضاوية[٩٥] فيرفع رأسه من السجود، وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان[٩٦] عالج، فيُهال[٩٧] من قدرة الله ويقول: «يا رازق المشرقة سناها، ومُبَلِّغ السائلة مُناها، والذي فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحلم الجهال! أسألك أن تقصُر بَوْص[٩٨] هذه الحورية».

فيقال له: «أنت مخيَّر في تكوين هذه الجارية كما تشاء.» فيقتصر من ذلك على الإرادة.

هوامش

(١) القبر.

(٢) ساحات.

(٣) سريع العطش.

(٤) كتب.

(٥) قليل المطر.

(٦) ضايقت – زاحمت.

(٧) مكثت.

(٨) معنى البيت: غادرك الركب ولو كانت الأمور تسير وفق ما تشتهي لما نأى عنك خلصاؤك.

(٩) اسم جبل.

(١٠) إذن.

(١١) واهن القوى.

(١٢) التناول أو الاختلاط.

(١٣) الركود: الناقة يدوم لبنها ولا ينقطع.

(١٤) الأبود الوحش.

(١٥) يروج.

(١٦) أروج – أجدى.

(١٧) دنوت – قربت.

(١٨) غبرة.

(١٩) صحيفة حسناتك.

(٢٠) احتك به – تعرض له – تلاج.

(٢١) ما ارتوى الماء مرتوي، أي: دائمًا أبدًا. ومعنى البيت: ليت خيرك يعادل شرك، فيكفّ هذا عني ذاك وأُصبح آمنًا منك أبدًا.

(٢٢) مقتو أي متبدل به. ومعنى البيت: اختر لنفسك صديقًا آخر يشبهك وتشبهه، فإني متبدل بك خليلًا صالحًا.

(٢٣) لا ترهقوه وترفقوا به.

(٢٤) ضم إلى نفسه.

(٢٥) محاورتهم.
(٢٦) لا ضير عليك.
(٢٧) جمع عدل وهو العادل الذي ترضى شهادته.
(٢٨) شدة الجزع.
(٢٩) بقية الحياة.
(٣٠) جرعا.
(٣١) تطردهم وتدفعهم.
(٣٢) هلاك.
(٣٣) الجماعة.
(٣٤) صوتها الخفي.
(٣٥) الغريب.
(٣٦) جمع طمش وهو الناس.
(٣٧) لا أحد.
(٣٨) اجعليه يجوز أي يعبر.
(٣٩) تعالجني.
(٤٠) كفر طاب قرية من قرى الشام، وفيها يقول أبو العلاء في لزومياته:

أرى كفر طاب أعجز الماء حفره وبالس أغناها الفرات عن الحفر
كذلك مجرى الرزق، واد بلا ندى وواد به فيض، وآخر ذو جفر

وبالس: قرية أخرى بالشام.
(٤١) وصلت حيرتي وخوفي وسأمي إلى حد نسيت معه ما أصنع.
(٤٢) حرت.
(٤٣) إقامتي.
(٤٤) ما أذهبته.
(٤٥) الليل والنهار.
(٤٦) ما قصداه أو ما توخياه ما تعمداه. ومعنى البيتين: ضعف بصري بعد أن كان صحيحًا، وكفى بالصحة منذرًا بالمرض، فقد آل الزمن ليسقمن كل صحيح، وليس يعجز الزمن أن يدرك غايته وشيكًا.

(٤٧) ما اخترع على خير مثال سابق.

(٤٨) خشية.

(٤٩) غنيمة.

(٥٠) معنى الأبيات: أربح غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مُصَرِّف الأمور، فله الحمد، لا كفو له، بيده الخير، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو على ما يشاء قدير.

(٥١) قمح.

(٥٢) لا در دري، أي لا كثر خيري أو لا زكا عملي.

(٥٣) قشر.

(٥٤) الرديء من ثمار شجرة الدوم.

(٥٥) معنى البيت: لا بارك الله في مالي إذا أطعمت نازلكم قشر الدوم مع وفرة ما لدي من القمح الزائد عن حاجتي.

(٥٦) يضمر.

(٥٧) شجر ذو شوك.

(٥٨) نظر أو تفكير.

(٥٩) المكتنز من اللحم كلحم الفخذ مثلًا.

(٦٠) خشب الجزارين يقطعون عليه اللحم.

(٦١) جمع خوان (بكسر الخاء أو ضمها)، وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل.

(٦٢) جمع فاثورة وهو الخوان أو الباطية.

(٦٣) الفضة.

(٦٤) جمع صحفة وهي القطعة الكبيرة.

(٦٥) الجرادتان — فيما زعموه — مغنيتان غَنَّتَا لوفد عاد الجرهمي بمكة فشغلوا عن الطواف بالبيت، وسؤال الله فيما قصدوا له، فهلكت عاد وهم لاهون.

(٦٦) جمع سرب، أي قطيع من النساء.

(٦٧) اللائم.

(٦٨) محنية أو محنوة أو محناة، جمعها محان وهي معاطف الأودية.

(٦٩) المليع: طريق ضيقة ذاهبة في الأرض إلى مسافة قريبة، قاعها أقل من قامة. أو هو أيضًا الأرض المستوية أو الأرض التي لا نبات فيها.

(٧٠) الجران مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره، والعود البعير المسن، وجران العود لقب هذا الشاعر، وإنما لُقِّب بذلك لقوله مخاطبًا امرأتيه وقد أغضبناه:

خذا حذرًا يا جارتي فإنني رأيت جران العود قد كان يصلح

يعني بذلك أنه كان قد اتخذ سوطًا من جران العود يضرب به نساءه فهو يخيفهما به. وكان قد لقي منهما مكروهًا فقال في ذلك أبياتًا جميلة منها:

ألا لا تغرن امرأ نوفلية على الرأس بعدي أو ترائب وضح

إلى أن قال:

خذ نصف مالي واتركا لي نصفه وبينا بذم؛ فالتغرب أروح

وأوجز ما يوصف به هذا الشاعر هو كلمة محسن التي وصفه بها أبو العلاء، فإن أول ميزة لشعره — وهو مجموع في ديوان صغير مخطوط بدار الكتب — هي الإحسان.

(٧١) اسم الشاعر وقد تقدم شرحه.

(٧٢) العلياء رأس الجبل أو المكان العالي، والمعنى أنهن وضعنني موضعًا لا يوصل إليه.

(٧٣) تصوت.

(٧٤) مرمي بالحجارة.

(٧٥) مقتول بالسيف، ومعنى البيت: أنهن قلن لي انتهز فرصة هذه الليلة وتمتع بنا فربما كانت آخر لياليك من الدنيا، لأنك قد تُرجم غدًا بالحجارة أو تقتل بالسيف في الحرب.

(٧٦) منعن عني.

(٧٧) الحجزة معقد الإزار أو موضع التكة من السراويل.

(٧٨) سقط أو ذهب.

(٧٩) شيء من صوف تختمر عليه نساء العرب، وقيل هو شيء يُدِرْنه على رؤوسهن تحت الخمار، وهو ضرب من الحلي. والنوفلي أيضًا ضرب من الامتشاط، وهو ما نذهب إليه هنا، فيكون المعنى أن شعورهن المنسقة المزخرفة تهدلت.

ويروى هذا البيت قبل سابقه في النسختين الخطية والمطبوعة من رسالة الغفران، ولكننا آثرنا رواية الأبيات كما رُويت في ديوان الشاعر المخطوط بدار الكتب؛ لأن المعنى

ينتظم على هذه الصورة، فالغواني يبحن له معابثتهن، ويشتد المزح والمغازلة، حتى تتهدل شعورهن، فإذا أراد المزيد مَنَعْنه، فأحرزن منه حجز مآزرهن بالعفة. أما تفسير الأبيات على الرواية الأخرى فيحتاج إلى تكلف.

وهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة مطولة لهذا الشاعر بلغت في الإجادة شأوًا بعيدًا، وإذا استشهد بعض الأدباء ببضع أبيات قلائل لعمر بن أبي ربيعة وجميل وغيرهما، على وجود شيء من محاولة العرب للشعر القصصي، فإن في هذه القصيدة وحدها مثلًا واضحًا على تلك المحاولة قد لا نذكر له شبيهًا آخر في كل ما قرأناه من شعر العرب. وتنيف أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتًا. ونحب أن نحيل القارئ إلى ديوان ذلك الشاعر المحسن، ونكتفي هنا بإيراد بضع أبيات متفرقة منها، تعطي فكرة موجزة عن أغراض القصيدة، وهي:

ذكرت الصبا فانهالت العين تذرف ... وراجعك الشوق الذي كنت تعرف
وكان فؤادي قد صحا، ثم هاجني ... حمائم ورق، بالمدينة هتف
وقالت لنا والعيس صعر من البرى ... وأحجافها بالجندل الصم تقذف
فموعدك الشط الذي بين أهلنا ... وأهلك، حتى نسمع الديك يهتف
فلما علانا الليلُ أقبلت خفية ... لموعدها، أعلو الأكام وأظلف
فأقبلنَ يمشينَ الهوينا تهاديا ... قصار الخطا، منهن راب ومزحف
فلما هبطنَ السهل واحتلن حيلة ... ومن حيلة الإنسان ما يتخوف
حملن جران العود حتى وَضَعْنه ... … … … إلـــــخ
ولما رأينَ الصبح، بادرنَ ضوءَه ... دبيب قطا البطحاء، أوهن أقطف
وأدركن أعجازًا من الليل بعدما ... أقام الصلاةَ العابِدُ المتحنِّف
وما أبنَّ حتى قلنَ يا ليت أننا ... ترابٌ، وليت الأرضَ بالناس تُخسف
فإنْ نَنْجُ من هذي ولم يشعروا بنا ... فقد كان بعض الخير يدنو فيُصرف
فأصبحنَ صرعى في الحجال وبيننا ... رماح العدا والجانب المُتخوِّف
يبلغهن الحاج كل مكاتب ... طويل العصا أو مقعد يتزحف
ومكمونة رمداء لا يحذرونها ... مكاتبة ترمي الكلاب وتحذف

ويقول في ختامها:

فأصبحت غريد الضحى قد ومقنني بشوق، ولمات المحيين تشغف

أي أصبحت فرحًا طروبًا قد شغفن بي واللقاء يهتاج الشغف.

(٨٠) تَصرف الكأس عنا أم عمرو وتُحوِّلها إلى جهة اليسار، وكان من الطبيعي أن تدور الكأس إلى جهة اليمين، ولكنها لم تفعل ذلك، ولست شر هؤلاء الثلاثة يا أم عمرو فتتغاضي عني وتحرميني من صبوحك التي تديرينها على الندامى.

(٨١) الممزوجة بالماء.

(٨٢) تفرق.

(٨٣) جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه.

(٨٤) ارحل أو سر أو سافر، والمعنى قد تفرق الجمع، فماذا أنا صانع بعد نأي من أحب، ولو خلا الركب من هؤلاء الحسان الأربع لتساوى عندي إقامته ورحيله.

(٨٥) القلب أو البال أو النفس.

(٨٦) المصوص طعام من لحم الطير يطبخ وينقع في الخل.

(٨٧) أحضرهن وقطعهن.

(٨٨) كعادتك.

(٨٩) اسم جبل.

(٩٠) انتشرت رائحته.

(٩١) الرياهي الرائحة الطيبة.

(٩٢) المعنى: «عادتك في حب هذه، كعادتك من قبل في حب أم الحويرث وأم الرباب، وقد كانتا يعبق منهما المسك أنى ذهبتا كما انتشر عطر القرنفل الذكي، حملته ريح الصبا.» ويوضح هذين البيتين قولُه في البيت الذي قبلهما من معلقته:

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

(٩٣) استَحَر أي صاح في السحر.

(٩٤) بله بمعنى دع أو كيف.

(٩٥) نحيفة أو قليلة الجسم.

(٩٦) جمع كثيب وهو التل من الرمل.

(٩٧) يفزع ويعظم عليه الأمر.
(٩٨) عجز.

جنة العفاريت

ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار، فينظر إلى ما هم فيه، ليعظم شكره على النعم، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ[1] ۞ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۞ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ قَالَ تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

فيركب بعض دواب الجنة ويسير! فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة، ولا عليها النور الشعشعاني،[2] وهي ذات أوحال وغماميل،[3] فيقول لبعض الملائكة: «ما هذه يا عبد الله؟» فيقول: «هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ وذُكروا في الأحقاف، وفي سورة الجن، وهم عدد كثير».

فيقول: «لأعدِلَنَّ إلى هؤلاء، فلن أخلو لديهم من أعجوبة.» فيعرج عليهم، فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارة، فيسلم عليه، فيحسن الرد، ويقول: «ما جاء بك يا إنسي؟» فيقول: «سمعت أنكم جن مؤمنون، فجئت ألتمس عندكم أخبار الجنَّان،[4] وما لعله يوجد لديكم من أشعار المردة.» فيقول ذلك الشيخ: «لقد أصبت العالم ببجدة[5] الأمر، فسل عما بدا لك».

فيقول: «ما اسمك أيها الشيخ؟» فيقول: «أنا الخيتعور أحد بني الشيطان، ولسنا من ولد إبليس، ولكنا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم — صلى الله عليه».

أشعار الجن

فيقول: «أخبرني عن أشعار الجن، فقد جَمَع المعروف بالمرزباني قطعة صالحة.» فيقول ذلك الشيخ: «إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه، وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض! وإنما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون، قَلَّ ما يعدوها القائلون، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس، وإنما كانت تخطر بهم أطيفال منا عارفون، فتنفث إليهم مقدار الضوازة[٦] من أراك[٧] نعمان.[٨] ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق آدم بكور[٩] أو كورين، وقد بلغني أنكم معشر الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وتحفظونها الحزاورة[١٠] في المكاتب، وإن شئتَ أمليتُك ألف كلمة على هذا الوزن على مثل منزلِ وحَوْمَلِ، وألفًا على ذلك القرى يجيء على مَنْزِلُ وحومَلُ، وألفًا على منزلًا وحوملًا، وألفًا على منزلَه وحوملَه، وألفًا على منزلِه وحوملِه. وكل ذلك لشاعر منا هلك وهو كافر، وهو الآن يشتغل في أطباق الجحيم».

فيقول: «أيها الشيخ، لقد بقي عليك حفظك!»

فيقول: «لسنا مثلكم يا بني آدم، يغلب علينا النسيان والرطوبة؛ لأنكم خُلقتم من حمأ[١١] مسنون، وخُلقنا من مارج[١٢] من نار».

فتحمله الرغبة في الأدب أن يقول لذلك الشيخ: «أفتُمْلِ عليَّ شيئًا من تلك الأشعار؟»

فيقول: «فإذا شئت أمللتُك ما لا تسِقه[١٣] الرِّكاب[١٤] ولا تسَعُه صحف دُنياك».

فيهمُّ بأن يكتتب منه، ثم يقول: «لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب، ولم أحظَ منه بطائل، ولست بموفَّق إن تركتُ لذَّات الجنة وأقبلتُ أنتَسِخ آداب الجن، ومعي من الأدب ما هو كافٍ، لا سيما وقد شاع النسيان في أهل أدب الجنة، فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظًا، ولله الحمد».

ويقول لذلك الشيخ: «ما كُنْيتك لأُكرمك بالتكنية؟» فيقول: «أبو هدرش، أولدت من الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل بعضهم في النار الموقدة وبعضهم في الجنان».

فيقول: «يا أبا هدرش! ما لي أراك أشْيَب، وأهل الجنة شباب؟»

فيقول: «إن الإنس أُكرموا بذلك وحُرمناه؛ لأنا أُعطينا الحولة[١٥] في الدار الماضية، فكان أحدنا إن شاء صار حية رقشاء،[١٦] وإن شاء صار عصفورًا، وإن شاء صار حمامة، فمنعنا التصور في الدار الآخرة، وتُركنا على خَلْقنا لا نتغير، وعُوض بنو آدم كونهم فيما حسن من الصور، وكان قائل الإنس يقول في الدار الذاهبة: أُعطينا الحيلة وأُعطي الجن الحولة».

قصة الجني

«ولقد لقيت من بني آدم شرًّا، ولقوا مني كذلك، حتى رزق الله الإنابة،[١٧] وأثاب الجزيل، فلا أفتأ له من الحامدين:

حَمَدْتُ مَنْ حَطَّ أوزاري ومَزَّقها … عني، فأَصْبَح ذنبي اليومَ مغفورا
وكنتُ آلَفُ مِن أترابِ قُرْطبة … خودا[١٨] وبالصين أخرى بنت يَغْبُورا[١٩]
أزورُ تلك وهذي غيرُ مُكْتَرِث … في ليلة، قبل أن أَسْتوْضِحَ النُّورا
ولا أمُرُّ بوَحْشِيٍّ ولا بَشَر … إلا وغادَرْتُه وَلْهَانَ مَذْعُورا
وأرْكَبُ الهيق[٢٠] في الظَّلْماء مُعْتَسِفًا[٢١] … أو لا، فذَب[٢٢] رياد[٢٣] بات مغرورا
وأحضرُ الشرب[٢٤] أعروهم بآبدة … يزجُّون عودًا ومزمارًا وطنبورا[٢٥]
فلا أُفارقهم حتى يكون لهم … فعلٌ يظلُّ به إبليس مسرورا
وأصرف العدل[٢٦] ختلًا[٢٧] عن أمانته … حتى يخون وحتى يشهد الزورا
وكم صرعتُ عوانًا[٢٨] في لظى لهب … قامت تمارس للأطفال مسجورا[٢٩]
وذادني[٣٠] المرء نوح عن سفينته … ضربًا إلى أن غدا الظنبوب[٣١] مكسورا
وطرت في زمن الطوفان معتليًا … في الجو حتى رأيت الماء محسورا[٣٢]
وقد عرضت لموسى في تفرده … بالشاء[٣٣] ينتج[٣٤] عمروسًا[٣٥] وفرفورا[٣٦]
لم أخله من حديث ما، ووسوسة … إذ دك ربك في تكليمه الطورا[٣٧]
أضللت رأي أبي ساسان[٣٨] عن رشد … وسرت مستخفيًا في جيش سابورا[٣٩]
وساد بهرام جور،[٤٠] وهو لي تبع … أيام يبني — على علاته — جورا[٤١]
فتارة أنا صل،[٤٢] في نكارته، … وربما أبصرتني عصفورا
نلوح للإنس حولًا أو ذوي عور … ولم نكن قط لا حولًا ولا عورا[٤٣]

* * *

ثم اتعظت، وصارت توبتي مثلًا من بعد ما عشت بالعصيان مشهورا
حتى إذا انقضت الدنيا ونودي إسـ ـرافيل: «ويحك هلا تنفخ الصورا»
أماتني الله شيئًا، ثم أيقظني لمبعثي فرزقت الخلد مسرورا»

لغة الجن

فيقول: «لله درك يا أبا هدرش، فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عرب لا يفهمون عن الروم، وروم لا يفهمون عن العرب كما نجد في أجيال الإنس؟»

فيقول: «هيهات أيها المرحوم، إنا أهل ذكاء وفطن، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفًا بجميع الألسن الإنسية ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس».

حديث الرَّجم

«وأنا الذي أنذرت الجن بالكتاب المنزَّل، أدلجت في رفقة نريد اليمن، فمررنا بيثرب، فـ ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.[٤٤] وعدت إلى قومي فذكرت لهم ذلك، فتسرعتْ منهم طوائف إلى الإيمان، وحثهم على ما فعلوه أنهم رُجموا عن استراق السمع بكواكب محرِقات».[٤٥]

فيقول: «يا أبا هدرش! أخبرني — وأنت الخبير — هل كان رجم النجوم في الجاهلية، فإن بعض الناس يقول إنه حدث في الإسلام؟»

فيقول: هيهات! أما سمعت قول الأودي:

كشهاب القذف يرميكم به فارس في كفه للحرب نار

وقول ابن حجر:

فانصاع[٤٦] كالدري[٤٧] يتبعه نقع[٤٨] يثور تخاله طُنُبا[٤٩]

ولكن الرجم زاد في أوان المبعث،[٥٠] وإن التخرص لكثير في الإنس والجن، وإن الصدق لمعوز قليل، وهنيئًا في العاقبة للصادقين، وفي قصة الرجم قول:

مكة أقوت من بني الدردبيس[٥١] فما لجني بها من حسيس[٥٢]
وقام في الصفوة من هاشم[٥٣] أزهر[٥٤] لا يغفل حق الجليس
يجلد في الخمر ويشتد في الـ أمر ولا يطلق شرب الكسيس[٥٥]
ويرجم الزاني ذا العِرْس لا يقبل فيه سؤلة[٥٦] من رئيس

* * *

وكم عروس، بات حراسها كجرهم[٥٧] في عزها أوجديس[٥٨]
غرت عليها فتخلجتها[٥٩] بواشك الصرعة قبل المسيس[٦٠]
وأُدلج[٦١] الظلماء في فتية ملجن[٦٢] فوق الماحل[٦٣] العربسيس[٦٤]
في طاسم:[٦٥] تعزف[٦٦] جنّانه أقفر الأمن عفاريت ليس[٦٧]
لا نسك في أيامنا عندنا بل نكس الدين، فما إن نكيس[٦٨]
فالأحد الأعظم والسبت كالـ اثنين، والجمعة مثل الخميس[٦٩]
لا مُجس نحن ولا هوَّد ولا نصارى يبتغون الكنيس
نمزق التوراة من هونها ونحطم الصلبان، حطم اليبيس[٧٠]

* * *

نزين للشارخ[٧١] والشيخ أن يفرغ كيسا في الخنا بعد كيس
ونخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس
نقول: «لا تقنع بتطليقة واقبل نصيحًا لم يكن بالدسيس»
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجد، بجَد تعيس
تذكره منها، وقد زوجت ثغرًا كدر في مُدام غريس

* * *

ونسخط المَلْك على المشفق المـ ـفرط في النصح إذا الملك سيس
لا أتقي البر لأهواله وأركب البحر أوان القريس[٧٢]
نادمت قابيل، وشيتا، وها بيل على العاتقة الخندريس[٧٣]

ورهــط لــقـــمـــان، وأيـــســـاره عاشرت من بعد الشباب اللبيس[٧٤]
ثــمــت آمــنــت، ومــن يــرزق الـــ إيـمـان يظفر بالخطير النفيس
جـاهـدت فـي بـدر، وحـاميـت فـي أُحد، وفـي الخندق رعت الرئيس[٧٥]
وراء جـبـريـل، ومـيـكـال نـخـــ ـلي الهام، في الكبَّة[٧٦] خلي اللسيس[٧٧]
والــجــمــل[٧٨] الأنــكــد شــاهــدتــه بئس نتيج الناقة العنتريس[٧٩]
وزرت صـفـيـن[٨٠] عـلـى شـطـبـة[٨١] جرداء، ما سائسها بالأريس[٨٢]
مـجـدّلًا[٨٣] بـالـسـيـف أبـطـالـهـا وقاذفا بالصخرة المرمريس[٨٤]
وســـرت قـــدام عـــلـــى غـــدا ة النهر حتى فل غرب الخميس[٨٥]
صـــادف مـــنـــي واعـــظ تـــوبـــة فكانت اللقوة[٨٦] عند القبيس[٨٧]

فيعجب لما سمعه من ذلك الجني، ويكره الإطالة عنده فيودعه.

حديث الأسد

ويحُم،[٨٨] فإذا هو بأسد يفترس من صيران[٨٩] الجنة وحسيلها،[٩٠] فلا تكفيه مئة ولا مئتان، فيقول في نفسه: «لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء[٩١] فيقيم عليها الأيام، لا يطعم سواها شيئًا.» فيُلْهَم الأسد أن يتكلم، وقد عرف ما في نفسه فيقول: «يا عبد الله! أليس أحدكم في الجنة تُقدَّم له الصحفة[٩٢] فيأكل منها مثل عمر السموات والأرض، يلتذ بما أصاب، فلا هو مُكْتَفٍ، ولا هي الفانية، وكذلك أنا أفترس ما شاء الله، فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب، ولكن تجد من اللذة كما أجد، بلطف ربها العزيز!»

«أتدري من أنا؟ أنا أسد القاصدة التي كانت في طريق مصر، فلما سافر عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة، وقال النبي ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك.» أُلهمت أن أتجوَّع له أيامًا، وجئت وهو نائم بين الرفقة، فتخللت[٩٣] الجماعة إليه، وأُدخِلت الجنة بما فعلتُ».

حديث الحطيئة

فيذهب، فإذا هو ببيت في أقصى الجنة، كأنه حفش[٩٤] أمة راعية، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة، وعنده شجرة قميئة،[٩٥] ثمرها ليس بزاكٍ.[٩٦]

فيقول: «يا عبد الله! لقد رضيت بحقير».

فيقول: «والله ما وصلت إليه إلا بعد هياط ومياط.[٩٧] وطراق من شقاء، وشفاعة من قريش، وددت أنها لم تكن».

فيقول: «من أنت؟» فيقول: «أنا الحطيئة العبسي.» فيقول: «بم وصلت إلى الشفاعة؟» فيقول: «بالصدق.» فيقول: «في أي شيء؟» فيقول: «في قولي:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما ... بهجر،[٩٨] فلا أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجهًا قبح الله خلقه ... فقبح من وجه، وقبح حامله»

فيقول: «ما بال قولك:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس[٩٩]

لَمْ يغفر لك به؟» فيقول: «سبقني إلى معناه الصالحون، ونظمته ولم أعمل به، فحرمت الأجر عليه.» فيقول: «ما شأن الزبرقان بن بدر؟» فيقول الحطيئة: «هو رئيس في الدنيا والآخرة، انتفع بهجائي، ولم ينتفع غيره بمديحي».

هوامش

(١) مجازون.

(٢) البهيج.

(٣) جمع غُملول (بضم الغين) وهو الوادي الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف، أو الوادي ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف، أو هو كل مجتمع أظلم وتراكم من الشجر.

(٤) الجنان جمع جان، والجان اسم جمع للجن.

(٥) أي العالم بدخلة الأمر وباطنه.

(٦) الشظية من السواك.

(٧) الأراك شجر يستاك بقضبانه.

(٨) مكان معروف.

(٩) مئة وخمسون أو مئتان، أي نحو قرنين.

(١٠) جمع حزور وهو الغلام.

(١١) طين أسود.

(١٢) شعلة ساطعة ذات لهب شديد أو نار بلا دخان.

(١٣) ما لا تحمله.

(١٤) الإبل.

(١٥) القدرة على التحول.

(١٦) منقطة بسواد وبياض.

(١٧) التوبة.

(١٨) الخود: المرأة الشابة.

(١٩) يغبور: اسم لملك الصين، كما يقال كسرى لملك فارس، وقيصر لملك الروم.

(٢٠) جمع أهيق وهو الظليم، أي ذكر النعام.

(٢١) سائرًا على غير هداية أو قاصدًا إلى لا غاية.

(٢٢) ثورًا وحشيًّا.

(٢٣) جمع ريد وهو الحرف الناتئ من الجبل، وهذا البيت يمثل للقارئ صورة ممتعة يلذ له أن يتخيلها، وهي براعة نعرفها في أبي العلاء الذي لم يفته أن يلائم بين سموق الجني وطول ذكر النعام في الشطر الأول من البيت، وبين ضخامته وعظم الثور الوحشي في الشطر الثاني، وليس أبدع من أن يتمثل الإنسان ذلك الجني راكبًا تلك النعامة الهوجاء ذات السوق الخفيفة أو ممتطيًا ذلك الثور الوحشي مع ضخامة جرمه وعنف جريه.

(٢٤) جمع شارب.

(٢٥) نوع من آلات الطرب له عنق طويل وستة أوتار من النحاس.

(٢٦) العادل الذي ترضى شهادته.

(٢٧) مخادعًا إياه.

(٢٨) العوان المرأة النصف.

(٢٩) المسجور اللبن الذي ماؤه أكثر من لبنه.

(٣٠) طردني.

(٣١) عظم ساقي، أي أن نوحا ظل يضربني لأغادر سفينته حتى كسر عظم ساقي. وفي هذا البيت دقة نحب ألا تفوت القارئ في كلمة المرء نوح، مع ملاحظة أن المتكلم جني يتكلم عن الإنس، أما الصورة الشعرية الجميلة التي يمثلها للقارئ هذا البيت فهي نظرنا أوضح من أن نشير إليها.

(٣٢) حتى انحسر الماء عن الأرض، أي انكشف.

(٣٣) جمع شاة.

(٣٤) ينتج، أي يلي نتاجها.

(٣٥) العمروس الخروف.

(٣٦) الفرفور الحمل، وهو يشير بذلك إلى حكاية رعيه الغنم لشعيب — عليه السلام — وهي معروفة، وقد ورد ذكرها في القرآن، في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾. وقد أشار موسى — عليه السلام — إلى ذلك حينما سأله الله عن عصاه فقال: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾.

(٣٧) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣٨) ساسان جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية.

(٣٩) سابور هو ابن أزدشير حفيد ساسان بن بابك، ثاني ملوك الدولة الساسانية الفارسية.

(٤٠) بهرام جور هو ابن يزدجرد ملك الفرس، وهو الذي بنى مدينة جور، وتاريخه مفعم بالبطولة والأعمال الجريئة.

(٤١) جور مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وهي طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ في بساتين وقصور، وإليها يُنسب نوع من الورد يعرف بالجوري، وهو شديد الحمرة، ويعد أجود أصنافه، وشهرة هذه المدينة بالورد كشهرة هجر بالتمر، ودارين بالمسك، وقطربل بالخمر.

(٤٢) حية دقيقة صفراء لا تنفع منها الرقية.

(٤٣) يقول: إنني كنت أبدو مرة في صورة صلّ كريه المنظر، وأخرى في صورة عصفور يزدهي الناظر حسنه، وكثيرًا ما كنا نظهر للإنس في صورة الحول والعور، على حين أننا أصحاء البصر، ولكنا نختار لأنفسنا الصورة التي يحلو لنا أن نبدو فيها.

(٤٤) ارجع إلى سورة الجن.

(٤٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

(٤٦) انفتل راجعًا مسرعًا ومر.

(٤٧) كالكوكب الدري.

(٤٨) غبار.

(٤٩) الطنب حبل طويل يُشد به سرادق البيت، والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء وقد خلف وراءه غبارًا مستطيلًا يشبه الحبل الطويل.

(٥٠) صرح أبو العلاء بهذا الرأي في اللزوميات فقال:

ولست أقول أن الشهب يومًا لبَعْثِ محمد جعلت رجوما

(٥١) حي من أحياء الجن.

(٥٢) صوت خفي.

(٥٣) قام في الصفوة من هاشم، أي قام من نخبة بني هاشم، أي في خيرهم.

(٥٤) مشرق الوجه، يعني به النبي ﷺ.

(٥٥) الكسيس: نبيذ التمر، ومعنى البيت أنه يُحرِّم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا النوع من النبيذ.

(٥٦) شفاعة.

(٥٧) جرهم: قبيلة كانت في جهات مكة نزل بينهم إسماعيل.

(٥٨) جديس قبيلة من العرب كانت منازلها باليمامة، وكان معهم بنو عمهم طسم، فطغت طسم على جديس حتى كان رئيسها عمليق يدخل بالمرأة من جديس قبل أن يدخل بها زوجها. وحكاية ذلك أشهر من أن نتصدى لذكرها، وفيها تقول عفيرة، وهي من سادات جديس، حين افتضها عمليق قبل بعلها، فخرجت تولول شاقة جيبها كاشفة قُبُلها:

لا أحد أذل من جديس أهكذا يُفعل بالعروس؟

ولما هاجت جديس على طسم بسبب هذا البيت مع القصيدة الدالية المشهورة التي أولها:

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رحال كثرة عدد الرمل

انتصرت عليها وانفردت بالعز، وظلت كذلك إلى أن أبادهم ملوك اليمن. وجرهم وجديس وطسم من العرب البائدة وقد ذكرهم أبو العلاء في شعره مرارًا، فمن ذلك قوله وهو التفاتة تاريخية رائعة:

سيسأل ناس ما قريش ومكة كما قال ناس «ماجديس وما طسم»

وقوله في موضع آخر أثناء كلامه عن الترك:

لهم حيل في حربهم ما اهتدت لها جديس، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله في ميميته الفذة التي حاور فيها الديك: «ورثت هدى التذكار من قبل جرهم».

(٥٩) جعلها تختلج.
(٦٠) قبل أن يمسها زوجها.
(٦١) أسير ليلًا.
(٦٢) من الجن.
(٦٣) الأرض الجدبة.
(٦٤) الأرض الجافة الغليظة.
(٦٥) المفازة لا أثر فيها.
(٦٦) تصوت.
(٦٧) شجعان، جمع أليس.
(٦٨) لا نفطن، أي أننا لا نفقه شيئًا في أمور الدين.
(٦٩) أشار أبو العلاء إلى هذا المعنى في لزومياته أكثر من مرة فقال:

لنا جمعة، والسبت يدعى لأمة أطافت بموسى، والنصارى لها الأحد
فهل لبواقي السبعة الزهر معشر يجلونها، ممن تنسك أو جحد؟

وقال:

فما هذه الأيام إلا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

(٧٠) اليبيس هو ما يبس من العشب، والبقول التي تتناثر إذا يبست، أو هو كل نبات يابس، ومعنى البيت: أننا نحقر التوراة فنمزقها، ونهزأ بالصلبان فنكسرها كما نكسر النبت اليابس.

(٧١) للشاب.

(٧٢) البرد الشديد.

(٧٣) الخمر.

(٧٤) أي الذي أخلق من كثرة اللبس.

(٧٥) بدر وأحد والخندق ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبي ﷺ، وهو يعني بالرئيس في واقعة الخندق أبا سفيان.

(٧٦) الكبة: الصدمة بين الخيلين في الحرب أو الزحمة.

(٧٧) يشير بذلك إلى ما ورد في القرآن من محاربة الملائكة في جانب المسلمين في تلك الوقائع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، إلى أن يقول: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، وقوله في سورة الأحزاب: ﴿وجنودًا لم تروها﴾.

(٧٨) يعني أنه شاهد واقعة الجمل.

(٧٩) العنتريس الناقة الغليظة، ومعنى البيت: «وقد شاهدت ذلك الجمل المشئوم الذي سميت باسمه الموقعة، فلا كان يوم ولدته أمه فيه، فإنه شر ما أنتجته تلك الناقة العنتريس التي خلفته».

(٨٠) موقعة صفين التي كانت بين علي ومعاوية.

(٨١) فرس معتدلة القوام.

(٨٢) الأريس الأكار، أي الحراث، يعني أن قائدها ليس بالغمر الذي لم يمارس أهوال الحروب.

(٨٣) راميًا بالسيف أبطالها إلى الأرض.

(٨٤) الملساء أو الشديدة.

(٨٥) الجيش، وسمي كذلك لأنه خمس فرق.

(٨٦) اللقوة، أي الناقة اللقوة، وهي كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل.

(٨٧) القبيس، أي الفحل القبيس، وهو كل فحل سريع الإلقاح، ومعنى البيت: أن الوعظ صادف استمدادًا منه وهوى في نفسه، فانتصح به وأقلع عما كان فيه من الضلال والغي.

(٨٨) يسير.

(٨٩) قطعان بقر الوحش.

(٩٠) أولاد البقر مفردها حسيلة.

(٩١) الهزيلة.

(٩٢) القصعة الكبيرة المنبسطة.

(٩٣) دخلت بينهم أو خلال ديارهم.

(٩٤) بيت صغير جدًّا.

(٩٥) صغيرة.

(٩٦) ليس ناميًا.

(٩٧) هياط ومياط، أي اضطراب ومجيء وذهاب ودفع وزجر. والهياط أشد السوق في الورد، والمياط أشد السوق في الصدر.

(٩٨) فحش من القول أو قبيح من الكلام.

(٩٩) المعروف.

الجحيم

حديث الخنساء

فيخلفه ويمضي، فإذا هو بامرأة في أقصى الجنة، قريبة من المطَّلَع إلى النار، فيقول: «من أنت؟» فتقول: «أنا الخنساء السُّلميَّة، أحببت أن أنظر إلى صخر، فاطَّلعتُ، فرأيته كالجبل الشامخ، والنار تضطرم في رأسه، فقال: «لقد صح مزعمك فيَّ»، يعني قولي:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم[1] في رأسه نار»

حديث إبليس

فيطلع فيرى إبليس — لعنه الله — وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع[2] الحديد تأخذه من أيدي الزبانية، فيقول: «الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه، لقد أهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله».

فيقول: «من الرجل؟»

فيقول: «أنا فلان بن فلان، من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك».

فيقول: «بئس الصناعة! إنها تهب غُفَّة من العيش لا يتسع بها العيال، وإنها لمزلة القدم، وكم أهلكت مثلك، فهنيئًا لك إذ نجوت، وإن لي إليك لحاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون».[3]

فيقول: «إني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار، أعني قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾».

فيقول: «إني لا اسألك في شيء من ذلك، ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه، إن الخمر حرمت عليكم في الدنيا، وأحلت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات؟»

فيقول: «عليك البهلة[٤] أما شغلك ما أنت فيه! أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾».

فيقول: «وإن في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر، فما فعل بشار بن برد، فإن له عندي يدًا[٥] ليست لغيره من ولد آدم، كان يفضلني دون الشعراء، وهو القائل:

إبليس أفضل من أبيكم آدم	فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره،[٦] وآدم طينة	والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق، ولم يزل قائله من الممقوتين».

حديثه مع بشار

فلا يسكت من كلامه، إلا ورجل في أصناف العذاب، يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم، فيفتحهما الزبانية بكلاليب[٧] من نار، وإذا هو ببشار بن برد، قد أعطي عينين بعد الكلمة، لينظر إلى ما نزل به من النكال.

فيقول له: «يا أبا معاذ[٨] لقد أحسنت في مقالك، وأسأت في معتقدك، ولقد كنت في الدار العاجلة أذكر بعض قولك، فأترحم عليك، ظنًّا أن التوبة ستلحقك، مثل قولك:

ارجع إلى سكن تعيش به	ذهب الزمان وأنت منفرد
ترجو غدًا، وغدًا كحاملة[٩]	في الحي، لا يدرون ما تلد[١٠]

وقولك:

الحر يلحى[11] والعصا للعبد وليس للملحف[12] مثل الرد»

فيقول بشار: «يا هذا! دعني من أباطيلك، فإني لمشغول عنك!»

حديثه مع امرئ القيس

ويسأل عن امرئ القيس بن حجر، فيقال: «يا أبا هند أخبرني عن التسميط[13] المنسوب إليك، أصحيح هو عنك؟» وينشده الذي يرويه بعض الناس:

يا قوم إن الهوى إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى فهد بعض القوى
فقد هوى الرجل

فيقول: «والله ما سمعت هذا قط، وإنه لقرى لم أسلكه، وإن الكذب لكثير، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إلي، أبعد كلمتي التي أولها:

ألا عم صباحًا[14] أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي!

وقولي:

خليلي مُرا بي على أم جندب لأقضي حاجات الفؤاد المعذب

يقال لي مثل ذلك، والرجز أضعف الشعر،[15] وهذا الوزن من أضعف الرجز!» فيعجب لما سمعه من امرئ القيس.

حديثه مع عنترة

وينظر، فإذا عنترة مُتَلَدّد[١٦] في السعير، فيقول: «ما لك يا أخا عبس! كأنك لم تنطق بقولك:

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال مفدم[١٧]

وإني إذا ذكرت قولك: «هل غادر الشعراء من متردم»[١٨] لأقول: «إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ، فأما الآن فلو سمعت ما قيل بعد مبعث النبي — صلى الله عليه — لعتبت نفسك على ما قلت، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس:

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت[١٩] حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب[٢٠] العقول، إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب»

فيقول: «وما حبيبكم هذا؟» فيقول: «شاعر ظهر في الإسلام.» وينشده شيئًا من نظمه، فيقول: «أما الأصل فعربي، وأما الفرع فنطق به غبي، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب.» فيقول وهو ضاحك مستبشر: «إنما ينكر عليه المستعار، وقد جاءت العارية في أشعار كثيرة من المتقدمين، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس.»[٢١]

«ولقد شق على دخول مثلك إلى الجحيم، وكأن أذني مصغية إلى قينات[٢٢] الفسطاط وهي تغرد بقولك:

أمن سمية[٢٣] دمع العين تذريف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف[٢٤]
تجللتني[٢٥] إذا أهوى العصا قيلي كأنها رشأ[٢٦] في البيت مطروف[٢٧]
العبد عبدكم، والمال مالكم، فهل عذابك عني اليوم مصروف»

حديثه مع علقمة

وينظر فإذا علقمة بن عبدة[٢٨] فيقول: أعزز علي بمكانك! ما أغني عنك سمطا لؤلئك،[٢٩] ولو شفعت لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله — سبحانه — لشفعت لك أبياتك في وصف النساء، أعني قولك:

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء، أو قلّ مالُه فليس له في وُدّهن نصيب
يُردن ثراء المال، حيث وجدنه وشرخُ[٣٠] الشباب عندهن عجيب[٣١]

حديثه مع عمرو بن كلثوم

فليت شعري ما فَعَل عمرو بن كلثوم، فيقال: «ها هو ذا من تحتك، إن شئت أن تُحاوره فحاوِرْه.» فيقول: «كيف أنت أيها المُصطبِح[٣٢] بصحن الفانية، والمُغتبِق[٣٣] من الدنيا الفانية! لوددتُ أنك لم تساند[٣٤] في قولك:

كأن مُتونهن متون غُدر[٣٥] تصفقها[٣٦] الرياح إذا جرينا»[٣٧]

فيقول عمرو: «إنك لقرير العين، لا تشعر بما نحن فيه، فاشغل نفسك بتمجيد الله، واترك ما ذهب فإنه لا يعود، وأما ذكرك سنادي فإن الأخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة، ويكون فيهم الأعرج والأبخق[٣٨] فلا يُعابون بذلك، فكيف إذا بلغوا المئة في العدد؟»

فيقول: «أعزز علي بأنك قصرت على شرب حميم، وأخذت بعملك الذميم من بعد ما كانت تسبأ[٣٩] لك القهوة[٤٠] تقابلك بلون الحص.[٤١] وقالوا في قولك سخينا قولين: أحدهما أنه فعلنا من السخاء والنون نون المتكلمين، والآخر أنه من الماء السخين، لأن الأندرين وقاصرين كانتا في ذلك الزمن للروم، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين في صيف وشتاء».

حديثه مع الحارث اليشكري

وينظر فإذا الحارث اليشكري، فيقول: لقد أحسنت في قولك:

لا تكسع[٤٢] الشول[٤٣] بأغبارها[٤٤] إنك لا تدري من الناتج[٤٥]

وقد كانوا في الجاهلية يكسعون[٤٦] ناقة الميت على قبره، ويزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بُعثت له فيركبها، وهيهات، بل حشروا عراة حفاة.

حديثه مع طرفة

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد، فيقول: «يا ابن أخي يا طرفة — خفف الله عنك — أتذكر قولك:

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدًا أينا الصدى[٤٧]

وقولك:

أرى قبر نحام بخيل[٤٨] بماله كقبر غوي في البطالة مفسد[٤٩]
متى تأتي أصبحك كأسًا روية وإن كنت عنها غانيًا، فاغن وازدد[٥٠]

فكيف صبوحك الآن وغبوقك؟[٥١] إني لأحسبهما حميمًا».

«ولقد كثرت في أمرك أقاويل الناس، فمنهم من يزعم أنك في ملك النعمان اعتقلت. وقال قوم: بل الذي فعل بك ما فعل عمرو بن هند».[٥٢]

«ولو لم يكن لك أثر في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال،[٥٣] لكنت قد أبقيت أثرًا حسنًا».

فيقول طرفة: «وددت أني لم أنطق مصراعًا، ودخلت الجنة مع الهمج والطغام، وكيف لي بهدء وسكون، ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[٥٤] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾».

حديثه مع أوس بن حجر

ويلفت عنقه يتأمل، فإذا هو بأوس بن حجر، فيقول: «يا أوس! إن أصحابك لا يجيبون السائل، فهل عندك من جواب؟! فإني أريد أن أسألك عن هذا البيت:

وقارفت،[٥٥] وهي لم تجرب، وباع لها من الفُصافص[٥٦] بالنمى[٥٧] سفسير[٥٨]

فإنه في قصيدتك التي أولها:

هل عاجل من متاع الحي منظور

ويروي في قصيدة النابغة التي أولها:

ودع أمامة والتوديع تعذير

وكلاكما معدود في الفحول، فعلى أي شيء يحمل ذلك؟!» فيقول أوس: «قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة، فاسأله عما بدا لك، فلعله يخبرك، فإنه أجدر أن يعي هذه الأشياء. فأما أنا، فقد ذهلت: نار توقد، وبنان يعقد، إذا غلب عليّ الظمأ رفع إليّ شيء كالنهر، فإذا اغترفت منه لأشرب، وجدته سعيرًا مضطرمًا. ولقد دخل الجنة من هو شر مني، ولكن المغفرة أرزاق، كأنها النشب في الدار العاجلة!»

فيقول: «إنما أردت أن آخذ عنك هذه الألفاظ فأتحف بها أهل الجنة، فأقول قال لي أوس وأخبرني أبو شريح».

حديثه مع أبي كبير الهذلي

ويرى رجلًا في النار لا يميزه من غيره، فيقول: «من أنت أيها الشقي؟» فيقول: «أنا أبو كبير الهذلي عامر بن الحليس.» فيقول: «إنك لمن أعلام هذيل، ولكني لم أوثر قولك:

أزهير هل عن شيبة من معدل[٥٩] أم لا سبيل إلى الشباب الأول

وقلت في الأخرى:

أزهير هل عن شيبة من مصرف   أم لا خلود لعاجز متكلف

وقلت في الثالثة:

أزهير هل عن شيبة من مَعْكم[٦٠]

فهذا يدل على ضِيق عَطَنك[٦١] بالقريض، فهلا ابتدأت كل قصيدة بفن؟ والأصمعي لم يروِ لك إلا هذه القصائد الثلاث.» فيقول أبو كبير الهذلي: «إنما كلام أهل سقر ويل وعويل، فاذهب لطَيَّتك».

حديثه مع الأخطل

وإذا هو برجل يتضور[٦٢] فيقول: «من هذا؟» فيقال «الأخطل التغلبي.» فيقول له: ما زالت صفتك للخمر، حتى غادرتك أُكلًا للجمر! فكم طربت السادات على قولك:

أناخوا، فجروا شاصيات[٦٣] كأنها   رجال من السودان لم يتسربلوا
فقلت أصبحوني[٦٤] لا أبا لأبيكم   وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
فصبوا عقارًا[٦٥] في الإناء كأنها   إذا لمحوها جذوة[٦٦] تتأكّل[٦٧]
وجاءوا ببيسانية هي بعد ما   يعل[٦٨] بها الساقي ألذُّ وأسهل
تمر بها الأيدي سنيحًا[٦٩] وبارحًا[٧٠]   وتوضع باللهم حي[٧١] وتحمل
فتوقف أحيانًا فيفصل بيننا   غناء مغن أو شواء مرعبل[٧٢]
فلذت لمرتاح وطابت لشارب   وراجعني منها مراح[٧٣] وأخيل[٧٤]
فما ألبتتنا[٧٥] نشوة[٧٦] لحقت بنا   توابعها، مما نعل وننهل
تدب دبيبًا في العظام كأنه   دبيب نمال في نقًا[٧٧] يتهيل[٧٨]

فقال التغلبي: إني جررت الدارع ولقيت الذارع، وهجرت الآبدة ورجوت أن تدعي النفس العابدة، ولكن أبت الأقضية، فيقول: أخطأت في أمرين — جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه، وعاشرت يزيد بن معاوية، وأطعت نفسك الغاوية، وآثرت ما فني على باق، فكيف لك بالإباق؟[٧٩]

فيزفر[٨٠] الأخطل زفرة تعجب لها الزبانية، ويقول: آه على أيام يزيد أسوف[٨١] عنده عنبرًا، وأمزح معه مزح خليل، وكأني بالقيان الصدحة[٨٢] بين يديه تغنيه:

ولـهـا بـالـمـاطـرون إذا | أكل النمل الذي جمعا
خلفة حتى إذا ظهرت | سكنت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة[٨٣] | حولها الزيتون قد ينعا
وقـفـت لـلـبـدر تـرقـبـه | فـإذا بـالـبـدر قد طلـعا

ولقد فاكهته في بعض الأيام وأنا سكران ملتخ[٨٤] فقلت:

ألا أسـلـم سـلـمـت أبـا خـالـد | وحـيـاك ربـك بـالـعـنـقـز[٨٥]
أكـلـت الـدجـاج وأفـنـيـتـهـا | فهل في الخنانيص[٨٦] من مغمز[٨٧]

فما زاد في عن ابتسام واهتز للصلة.

فيقول الشيخ: «من ثم أتيت، أما علمت أن ذلك الرجل عاند، فعلام اطلعت من مذهبه، أكان موحدًا أم ملحدًا؟» فيقول الأخطل: كانت تعجبه هذه الأبيات:

أخـالـد! هـاتـي خـبـريـنـي وأعـلـني[٨٨] | حديثك إني لا أسر[٨٩] التناجيا[٩٠]
حديث أبي سفيان، لما سما بها | إلى أحد،[٩١] حتى أقام البواكيا
وكيف بغى أمرًا[٩٢] علي ففاته | وأورثه الجد[٩٣] السعيد معاويا
وقومي فعليني[٩٤] على ذاك[٩٥] قهوة[٩٦] | تحلبها العيسى كرمًا[٩٧] شآميا[٩٨]
إذا ما نظرنا في أمور قديمة | وجدنا حلالًا شربها المتواليا
فلا خلف بين الناس، إن محمدًا | تبوأ رمسًا في المدينة ثاويا[٩٩]

فيقول: «عليك البهلة! قد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار، عن المدح والنسيب،[١٠٠] وما شُدهت[١٠١] عن كفرك ولا إساءتك!»

وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله، فيقول للزبانية: «ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك! ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه؟ فلو أن فيكم صاحب نحيزة[١٠٢] قوية، لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر!» فيقولون: «ليس لنا على أهل الجنة سبيل».

فإذا سمع ما يقوله إبليس، أخذ في شتمه ولعنه، وإظهار الشماتة به، فيقول عليه اللعنة: «ألم تنهوا عن الشمات يا بني آدم؟ ولكنكم — بحمد الله — ما زجرتم عن شيء، إلا وركبتموه.» فيقول: «أنت الذي بدأت آدم بالشماتة، والبادئ أظلم».

ثم يعود إلى كلام الأخطل فيقول: «أأنت القائل هذه الأبيات:

ولست بصائم رمضان طوعًا　　ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالعَير[١٠٣] أدعو　　قبيل الصبح «حي على الفلاح»
ولكني سأشربها شمولًا[١٠٤]　　وأسجد عند منبلج[١٠٥] الصباح

فيقول: «أجل! وإني لنادم سادم،[١٠٦] وهل أغنت الندامة؟»

ويمل من خطاب أهل النار، فينصرف إلى قصره المشيد، فإذا صار على ميل أو ميلين، ذكر أنه ما سأل عن مهلهل التغلبي ولا عن الشنفرى وتأبط شرًّا، فيرجع على أدراجه، فيقف بذلك الموقف ينادي: «أين عدي بن ربيعة؟» فيقال: «زِدْ في البيان.» فيقول: «الذي يَستشهد النحويون بقوله:

ضربت صدرها إليَّ وقالت:　　«يا عديًّا! لقد وَقَتْكَ[١٠٧] الأواقي»[١٠٨]

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله:

ولقد خبطن[١٠٩] بيوت يشكر خبطة　　أخوالنا، وهم بنو الأعمام

وقوله:

ما أرجي بالعيش بعد ندامى　　كلهم قد سقوا بكأس حلاق»[١١٠]

فيقال: «إنك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا منه، ما النحويون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهذيان؟ نحن خزنة النار، فبَيِّنْ غرضك تُجب إليه».

حديثه مع مهلهل

فيقول: «أريد المعروف بمهلهل التغلبي، أخي كليب وائل الذي كان يُضرب به المثل.» فيقال: «ها هو ذا يسمع حوارك، فقل ما تشاء.» فيقول: «يا عدي بن ربيعة! اعزز علي بولوجك[١١١] هذا المولج! لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التي أولها:

أليلتنا بذي حسم[١١٢] أنيري إذا أنت انقضيت[١١٣] فلا تحوري[١١٤]

لكانت جديرة أن تطيل الأسف عليك، وقد كنت إذا أنشدت أبياتك في ابنتك المزوجة، في جنب،[١١٥] تغرورق من الحزن عيناي، فأخبرني لم سُميت مهلهلًا، فقد قيل إنك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعر، أي رققه؟» فيقول: «إن الكذب لكثير، وإنما كان لي أخ يقال له امرؤ القيس، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي، فتبعه أخي في زرافة[١١٦] من قومه فقال في ذلك:

لما توقل[١١٧] في الكراع[١١٨] هجينهم[١١٩] هلهلت[١٢٠] أثأر مالكا أو صنبلا

فسمي مهلهلًا، فلما هلك شبهت به، فقيل لي مهلهل.» فيقول: «الآن شفيت صدري بحقيقة اليقين».

حديثه مع الشنفرى

ويسأل عن الشنفرى الأزدي فيلقيه قليل التشكي[١٢١] والتألم لما هو فيه، فيقول: «إني لا أراك قلقًا مثل قلق أصحابك!» فيقول: «أجل، إني قلت بيتًا في الدار الخادعة فأنا أتأدب به، وذلك قولي:

غوى فغوت، ثم ارعوى[١٢٢] بعدُ وارعوت وللقبر إن لم ينفع الشكو أجمل»

حديثه مع تأبط شرًّا

وإذا هو قرين مع تأبط شرًّا، كما كان في الدار الغرارة، فيقول لتأبط شرًّا: «أحقٌّ ما روى عنك من نكاح الغيلان؟» فيقول: «لقد كنا في الجاهلية نتقول ونتخرص[١٢٣] فما جاءك مما ينكره المعقول فإنه من الأكاذيب، والزمن كله على سجية واحدة، فالذي شاهده معد بن عدنان كالذي شاهده آخر ولد آدم.» فيقول الشيخ: «نقلت إلينا أبيات تنسب إليك:

أنا الذي نكح الغيلان في بلد ما طل[١٢٤] فيها سماكي ولا جادا»

فلا يجيبه تأبط شرًّا بطائل.

هوامش

(١) جبل شامخ.

(٢) عمد الحديد مفردها مقمعة، وهي عمود من الحديد كالمحجن يضرب به رأس الفيل أو خشبة يضرب بها الإنسان ليذل.

(٣) دائمًا أبدًا.

(٤) اللعنة.

(٥) معروفًا أو إحسانًا.

(٦) أصله.

(٧) جمع كلَّاب (بتشديد اللام)، وهو حديدة معطوفة الرأس، أو عود في رأسه عقافة يجر به الجمر.

(٨) كنية بشار.

(٩) كحبلى.

(١٠) أي أن غدا مجهول لا تعرف ما يجنيه لك.

(١١) يلام.

(١٢) الملح.

(١٣) التسميط ضرب من الشِّعر ينظم مسمطًا أي مقسمًا على أجزاء عروضية مقفاة على غير روي القافية، وقد نحلوا امرأ القيس تسميطًا آخر بين البعد عن الأسلوب الجاهلي، وأوله:

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

(١٤) ليكن صباحكم ناعمًا.

(١٥) هذا هو رأي أبي العلاء في الرجز، وسيمر بك في هذه الرسالة ما يقنعك بتحامله الشديد على الرجاز وافتنائه في احتقارهم وتنقصهم، وسننبه على ذلك في موضعه. ونجتزئ هنا ببعض أبيات من لزومياته تستشف منها رأيه في الرجز والرجاز، بصراحة لا تدع مجالًا للشك، وهي قوله:

قصرت أن تدرك العلياء في شرف أن القصائد لم يلحق بها الرجز

وقوله:

ولم أرق في درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز

وقوله:

عجزت عن الكسب الذي يجلب الغنى وما أنت من كسب الدنايا بعاجز
ومن لم ينل في القول رتبة شاعر تقنع في نظم برتبة راجز

(١٦) متحير أو متبلد يتلفت يمينًا وشمالًا، وهو مأخوذ من صفحتي عنقه.

(١٧) ارجع إلى تفسيرهما في هامش مشاجرة الجعدي والأعشى.

(١٨) المتردم: الموضع يترفع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى، أي لم يترك الشعراء لي معنى جديدًا أقوله بعدهم.

(١٩) ما جمعته.

(٢٠) مطر.

(٢١) حبيب بن أوس هو أبو تمام، وهذا هو رأي أبي العلاء في شعره، وقد ذكره في لزومياته فقال:

وجدت عواري الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر حبيب

(٢٢) مغنيات.

(٢٣) سمية هي امرأة أبيه، وكان يحبها فحرضت عليه أباه ذات يوم وادعت أن عنترة راودها عن نفسها، فغضب عليه غضبًا شديدًا، وأخذ يضربه ضربًا مبرحًا، فلما رأت ذلك رق له قلبها، فارتمت عليه تجلله وتحميه وبكت لما أصابه، ففاضت شاعريته بتلك الأبيات.

(٢٤) معنى البيت: أحقًّا تذرفين علي دموعك وما عودتني ذلك من قبل؟

(٢٥) علتني أو تكنفتني.

(٢٦) ولد الظبية.

(٢٧) باكي العين.

(٢٨) هو علقمة الفحل.

(٢٩) يعني بائيته وميميته، ومطلع الأولى: «طحا بك قلب في الحسان طروب.» ومطلع الثانية: «هل ما علمت وما استودعت مكتوم.» وهما مشهورتان.

(٣٠) شرخ الشباب ريعانه، أي أوله.

(٣١) معنى الأبيات واضح، واستحسان أبي العلاء لها إلى هذا الحد يدلك على أنها صادفت هوى في نفسه، وأنه ممن يدينون بهذا الرأي، وربما مثلت لك هذه الأبيات بعض ما يعتقده في النساء، فلنذكر لك بهذه المناسبة موجز:

رأي أبي العلاء في المرأة

فنقول: «إن كان لأحد أن يسخط على أبي العلاء، فهي المرأة، فقد احتقرها، وأنكر عليها أكثر مزاياها، وأمعن في إساءة الظن بها، وأسرف في ذلك إسرافًا بلغ به أن رأى السعادة في خلو العالم منها، فقال:

بدء السعادة إن لم تخلق امرأة　　فهل تود جمادى أنها رجب؟

ورأى أنها لا تصلح للحياة العامة مطلقًا، وتَمَثَّلها غادرة متهالكة على لذاتها، منهمكة متفانية في شهواتها، لا تعرف الوفاء، ولا تدرك للحب الصادق معنى، تتجهم للرجل إذا قل ماله، وتخونه لأتفه الأسباب.

وبهذه العقيدة المتعنتة، اندفع يشدد عليها الحجاب، وينهاها عن دخول الحمام، ويحرم عليها أداء فريضة الحج، ويحظر عليها الصلاة في المسجد، وينصحها بالعدول عن طلب العلم، فإذا لم يكن لها بُدٌّ من طلبه، فحسبها منه أن تحفظ بضع أبيات يلقنها إياها شيخ أعمى، أنهكه الكبر، فخانته قواه وارتعشت من الضعف يده. وعليها أن تكتفي بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة، أو تطمح إلى التعمق في فهم ما حفظته، فإن ذهنها الضيق لا يتسع لذلك، ولا حاجة بها إليه. أما القراءة والكتابة فإنها مفسدة لها. ولو شئنا سرد ما قاله في ذلك، لخرجنا عما قصدنا إليه، ولكن حسبنا أن نجتزئ هنا بقوله:

علموهن النسج والغزل والرد　　ن، وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلا　　ص، تغني عن يونس وبراءة

وقوله:

ولا يدنين من رجل ضرير　　يلقنهن آيًا محكمات
سوى من كان مرتعشًا يداه　　ولمته من المتثغّمات

وليس لأبي العلاء من حسنة تذكرها له المرأة إلا سخطه على وأد البنات — إن كان يصح اعتبار هذا الواجب الإنساني حسنة، فقد قال:

لا تولدوا، فإذا أبي طبع، فلا　　تئدوا، وأكرم بالتراب مصاهرًا

على أن هذا الرأي هو أقل ما ننتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحريم أكل الحيوان على نفسه، إشفاقًا عليه، بل وصلت إلى حد أن أنكر على الناس قتل البرغوث، فقال:

تسريح كفك برغوثًا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجًا

وأخذ يدلل على ذلك فقال:

كلاهما يتوفى — والحياة لا عزيزة — ويروم العيش مهتاجًا

على أنك، إذا آنست منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث، في هذين البيتين، آلمك ما تلمحه من الفتور، حين يدافع عن وأد البنات في قوله: «وأكرم بالتراب مصاهرًا.» فقد ترى فيه نهيًا مشوبًا بشيء من التردد والحذر، بل إن شئت فقل من الرضى والتماس العذر».

ولا يذهبن الوهم بالقارئ، فيحسب أن أبا العلاء كان مع كل هذا التحامل يكرهها أو يقتص منها لترة في نفسه منها، فقد كان، على العكس من ذلك، شفيقًا رحيمًا بها، وإنما دفعه إلى تنقصها وتمني خلو العالم منها، حدبه العميم على الإنسان. ولما كانت المرأة في رأيه هي أداة النسل ومجلبته وهو لا يرى في غير انقراض النسل حاسمًا لشقاء العالم، فلا جرم خصَّها بأكبر قسط من سخطه، ونقمَ عليها وجودها.

وقد ساعده على سوء ظنه بها واحتقاره مواهبها، ما كانت عليه في عصره من الانحطاط الخلقي والضعف النفسي، وما اكتظت به الآداب العربية التي درسها من تنقص المرأة والافتنان في ذكر مثالبها.

ولا مندوحة هنا من التنبيه على أن رأي شوبنهور الفيلسوف الألماني لا يختلف كثيرًا عن رأي أبي العلاء في المرأة، ولا يغيبن عن القارئ اتفاقهما في المزاج السوداوي الذي كان علة تشاؤمهما معًا.

(٣٢) المصطبح هو الذي يشرب الصبوح أي خمر الغداة، وهو يشير بذلك إلى قوله في أول معلقته:

ألا هُبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

أي انهضي بقدحك أيتها الساقية، واسقينا خمرة الصباح، ولا تدخري شيئًا مما عندك من تلك الخمر التي أحضرت من قرى الأندرين.

(٣٣) المغتبِق هو الذي يشرب الغبوق، أي خمر العشيِّ.

(٣٤) أي لم تأتِ بالسناد في شعرك، والسناد في الشعر هو كل عيب في القافية قبل الروي.

(٣٥) مخفف غدُر، بضم الدل.

(٣٦) تضربها.

(٣٧) معنى البيت: أن متون تلك الدروع يشبه متون الغدُر إذا صفقها الرياح أثناء جريها.

(٣٨) البخق أقبح العور وأكثره غمصًا.

(٣٩) تشرى لك لتشربها.

(٤٠) الخمر.

(٤١) الحص هو الورس، نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران، وقد أشار بذلك إلى قوله في معلقته يصف الخمر:

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها، سخينًا

والمشعشعة: الخمر الممزوجة بالماء.

(٤٢) كسع الناقة بغبرها ترك في خلفها بقية من اللبن ليغزر.

(٤٣) الشول: الناقة التي شال لبنها، أي ارتفع فلم يبق في ضرعها إلا صبابة منه.

(٤٤) أغبار جمع غبر، وهي بقية اللبن في الضرع.

(٤٥) هو الذي ينتج الناقة، أي يلي نتاجها. ومعنى البيت: لا يكن همك تغزير إبلك لتقوية نسلها، فإنك لا تدري ما تضمره الأيام فربما اختص بنتاجها غيرك.

ويلي هذا البيت قوله:

وأحلب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الوالج

أي شر اللبن هو المكسوع الذي يلج في ظهور النوق فاحلبها لأضيافك ولا تكن بخيلًا.

(٤٦) يكسعون ناقة الميت، أي يضربونها بقوائم سيوفهم من أسفل، وليس لهذا الكلام علاقة بالبيت السابق وإنما هي التفاتة من أبي العلاء لا تخلو من نفع وليس في ذكرها بأس.

(٤٧) يصف نفسه بأنه كريم يروي نفسه بالخمر ويفخر بأنه سيموت ريان، وأن عاذليه في شربها سيظمأون عند موتهم.

(٤٨) بخيل حريص على جمع المال وادخاره.

(٤٩) معنى البيت: لا أرى أي فرق بين قبر البخيل الذي عنى نفسه بجمع المال وادخاره، وقبر المفسد المتلاف لماله، فما قيمة المال إذن، ولماذا أبقى عليه ولا أمتع نفسه به.

(٥٠) إذا وافيتني منحتك كأسًا تروى بها من الخمر، فإذا لم تشأ، فلا سقيتها أبدًا.

(٥١) الصبوح شراب الصباح، والغبوق شراب المساء.

(٥٢) يشير بذلك إلى الروايتين الشائعتين عن سبب قتله، والرواية الثانية أرجح وأشهر، وفحواها أن طرفة كان قد هجى عمرو بن هند، فأحفظه تلك عليه، وأسرها له في نفسه، ثم أرسله مع المتلمس إلى عامله بالبحرين، بعد أن تلطف بهما، وأعطى كلًّا منهما كتابًا، أوهمهما أن فيه أمرًا بصلتهما، وإنما فيه أمر بقتلهما. وارتاب المتلمس في نية ابن هند، فذهب إلى غلام يقرأ له كتابه، فلما وجد فيه الأمر بقتله فر، ونصح طرفة فلم ينتصح، وذهب لطيته حيث لقى حتفه.

(٥٣) يعني معلقته الرائعة التي وُفِّق فيها كل التوفيق إلى تمثيل صورة واضحة دقيقة من نفسه. المتوثبة إلى غايات الشباب النبيل، الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن، الفياضة بالشاعرية الغالية، التي تلمحها في أغلب أبياتها — إن لم نقل في كلها، وهل ترى أنصح من تلك الصورة الجميلة التي مَثَّل فيها نفسه، حين يقول:

ألا أيهذا الزاجري، أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك، لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميت، متى ما تعل بالماء تزبد
وكري، إذا نادى المضاف مجنبًا، ... كسيد الغضا، نبهته — المتورد
وتقصير يوم الدجن، والدجن معجب، ... ببهكنة، تحت الخباء المعمد

فانظر إليه كيف يدفع حجة من يعذله في اقتحامه الهيجاء وتمتعه بلذاته، باستحالة الخلود، ومن ثم بوجوب اقتناص الفرص، والتمتع بمسرات الحياة، قبل أن تغتاله يد الموت، وانظر إلى رغباته الثلاث التي لا يرى للحياة معنى بدونها، وهي سبقه العاذلات

بشربة من الخمر الكميت، واندفاعه في ساحة الحرب بفرسه، التي تشبه الذئب في سرعة العدو، لإغاثة اللائذ به، وتقصيره يوم الغيم، بالتمتع بامرأة جميلة يغازلها، في سرادق مرفوع.

(٥٤) الجائرون أو الحائدون عن الحق.

(٥٥) خالطت الجربى فلم تجرب لقوتها.

(٥٦) جمع فصفصة وهي نبات تعلفه الدواب.

(٥٧) الفلوس.

(٥٨) سائس حاذق، ومعنى البيت أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم يصبها جرب؛ لأنها من الأفراس القوية التي يشري لها علفها بالمال سائس حاذق يعنى بأمرها.

(٥٩) مصرف، وهذا البيت من قصيدة جميلة عدتها ثمانية وأربعون بيتًا قالها في تأبط شرًّا، ابن زوجه أميمة.

(٦٠) محبس.

(٦١) ضيق باعك.

(٦٢) يتأوى من وجع الضرب أو من ألم الجوع.

(٦٣) زقاقًا مملوءة شائلة القوائم، أو قربًا ملئت فارتفعت قوائمها.

(٦٤) أسقوني خمر الصباح.

(٦٥) العقار الخمر سميت كذلك لمعاقرتها، أي لملازمتها الدن.

(٦٦) جمرة ملتهبة.

(٦٧) تحترق وتتوهج.

(٦٨) يسقى بها ثانية.

(٦٩) من الجانب الأيمن.

(٧٠) من الجانب الأيسر.

(٧١) أي أنهم حين يضعونها يهللون فرحين بها.

(٧٢) مقطع لتصل إليه النار فتنضجه.

(٧٣) اشتداد الفرح حتى يجاوز الإنسان حده فيتبختر ويختال.

(٧٤) كبر.

(٧٥) لم تمهلنا.

(٧٦) سكرة.

(٧٧) كثيب أو قطعة من الرمل تنقاد محدودية.

(٧٨) ينهال.

(٧٩) الهروب أو الفرار ومعناها هنا النجاة.

(٨٠) يخرج نفسه بعد مده إياه.

(٨١) أشم.

(٨٢) اللائي يرفعن أصواتهن بالغناء.

(٨٣) قرية عظيمة أو بناء كالقصر حوله بيوت.

(٨٤) مختلط وملتبس كلامي من شدة السكر.

(٨٥) نوع من النبت قيل هو الياسمين.

(٨٦) جمع خنوص وهو ولد الخنزير.

(٨٧) مطعن، ومعنى البيت أنك أفنيت الدجاج أكلًا، فما عليك لو عطفت على الخنازير فأكلتها، أترى فيها مطعنًا؟

(٨٨) جاهري به.

(٨٩) لا أكتم.

(٩٠) السر.

(٩١) يعني جبل أُحُد وهو يشير بذلك إلى انتصار المشركين على النبي ﷺ في واقعة أحد سنة (٦٢٥م)، وكان قائد المشركين فيها أبو سفيان، وكان النصر محققًا للمسلمين في بدئها، فلما خالفوا أمر النبي ﷺ وانتقلوا من مواضعهم، كرَّ عليهم المشركون وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، فيهم حمزة عم النبي ﷺ، واستطاع العدو أن يخلص إلى النبي ﷺ فيرميه بالحجارة، ووقع لشقه، فأصيبت رباعيته وشج وجهه وكلمت شفته، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وسقط في إحدى الحفر التي حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون، فأخذه علي بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله، وأحاط به جماعة من الأنصار والمهاجرين، استبسلوا في الدفاع عنه، وفي هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة بنت كعب، شجاعة مدهشة وإقدامًا يستفز الإعجاب والروعة، فقد كانت تسقي الماء في أول النهار، فلما رأت هزيمة المسلمين، انحازت إلى النبي ﷺ وتفانت في الذود عنه، ضاربة بسيفها مرة، ورامية عن قوسها أخرى، حتى أثخنتها الجروح.

وفي نهاية المعركة صعد أبو سفيان ربوة، ونادى المسلمين بأعلى صوته: «أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعْلُ هُبَل!»

(٩٢) يشير بذلك إلى أمر الخلافة التي سعى إليها معاوية وعلي، فقُتل الثاني وأحرزها الأول.

(٩٣) الحظ.

(٩٤) اسقيني.

(٩٥) نخب ذلك.

(٩٦) خمرة.

(٩٧) عنبًا.

(٩٨) تعالي فحدثيني وأعلني أحاديثك الجميلة فليس من رأيي كتمانها، حدثيني عن هزيمة المسلمين في أحُد، وانتصار أبي سفيان عليهم، وولولة باكياتهم على قتلاهم، وحدثيني عن فشل علي في الحصول على الخلافة، وانتصار معاوية عليه، وإحرازها دونه، ثم اسقيني نخب هذه الذكريات المحبوبة خمرة لذيذة، اعتصرها العيسى من عنب شآمي.

(٩٩) إذا تأملنا أقوال القدماء، لم نجد أحدًا منهم يحرم الخمر، فإذا كان محمد قد تفرد بتحريمها وحده، فها هو محمد قد مات، فزال بموته الخلف في شأنها بين الناس.

(١٠٠) التشبيب.

(١٠١) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه.

(١٠٢) طبيعة.

(١٠٣) الحمار.

(١٠٤) خمرًا باردة.

(١٠٥) عند إشراق الصباح.

(١٠٦) سادم في معنى نادم وهي هنا للتأكيد.

(١٠٧) حفظتك وصانتك عن الأذى.

(١٠٨) جمع واقية وهي الشيء يتقى به، ومعنى البيت أنها دقت صدرها داعية أن لا يصيبني مكروه.

(١٠٩) ضربنهم ضربًا شديدًا.

(١١٠) الحلاق: المنية، ومعنى البيت: أي خير في الحياة بعد أن أفنى الردى كل نداماي.

(١١١) بدخولك.

(١١٢) اسم مكان.

(١١٣) انتهيت.

(١١٤) لا ترجعي.

(١١٥) منتحيًا.

(١١٦) جماعة.

(١١٧) صعد في أي توغل أو رقى فيه.

(١١٨) الكراع: أنف يتقدم الحرة ممتد، أي جزء خارج ممتد يتقدم الحرة، وهي كل أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

(١١٩) يعني بالهجين زهير بن جناب.

(١٢٠) قاربت ويقال توفقت.

(١٢١) قليل التشكي أي قليل التوجع والتأوه، وبذلك وصفه قرينه تأبط شرًّا في قصيدة جميلة منها.

قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتي النوى والمسالك

أي قليل التوجع لما يحزنه، كثير السفر والتحول من مكان إلى آخر.

(١٢٢) كف ورجع.

(١٢٣) نفتري ونكذب.

(١٢٤) لم يصبها الطل وهو الرذاذ أي المطر الضعيف.

عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم في الشقاء السرمد، وعمد لمحله في الجنان، فيلقى آدم — عليه السلام — في الطريق، فيقول: «يا أبانا — صلى الله عليك، قد روي لنا عنك شعر، منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكانها منها خُلقنا، وإليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالي السعود»

فيقول: «إن هذا القول حق، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكني لم أسمع به حتى الساعة.» فيقول: «فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت؟ فقد علمت أن النسيان متسرع إليك، وحسبك شهيدًا على ذلك، الآية المتلوة في قرآن محمد — صلى الله عليه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانًا لنسيانك، واحتج[1] على ذلك بقولهم في التصغير: أنيسان، وفي الجمع: أناسي، وقد روي أن الإنسان من النسيان عن ابن عباس، وقال الطائي:

لا تَنْسينَّ تلك العهود وإنما سُميت إنسانًا لأنك ناسي»

فيقول آدم — صلى الله عليه وسلم: «أبيتم إلا عقوقًا وأذية؟ إنما كنت أتكلم العربية، وأنا في الجنة، فلما هبطت الأرض نقل لساني إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلما ردني الله — سبحانه وتعالى — إلى الجنة عادت علي العربية، فأي حين

نظمت هذا الشعر في العاجلة أم الآجلة، والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله: منها خلقنا وإليها نعود؟ فكيف أقول هذا المقال ولساني سرياني. وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وإنه مما حكم على العباد. وأما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: «وإليها نعود»؛ لأنه كذب لا محالة، ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مُخَلَّدون!»

فيقول: إن بعض أهل السِّيَر يزعم أن هذا الشعر وجده يعرب في متقدم الصحف السريانية، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمتنع أن يكون، وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل قابيل هابيل:

تغيرت البلاد ومَنْ عليها ... فوجه الأرض مُغبَر قبيح
وأودي رُبع أهليها فبانوا ... وغودر في الثرى الوجه المليح

فيقول آدم — صلى الله عليه وسلم: «أعزز علي بكم معشر بنيَّ!

إنكم في الضلالة متهوكون،[2] آليت[3] ما نطقت هذا النظم ولا نطق في عصري، وإنما نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوة إلا بالله. كذبتم على خالقكم وربكم، ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض!»

حديثه مع ذات الصفا

ثم يضرب سائرًا في الفردوس فإذا هو بروضة مؤنقة، وإذا هو بحيات يلعبن، فيقول: «لا إله إلا الله! وما تصنع حية في الجنة؟» فينطقها الله — جلت عظمته — بعد ما ألهمها المعرفة بهاجس الخلد، فتقول: «أما سمعت في عمرك بذات الصفا، الوافية لصاحب ما وفيٍّ، كانت تنزل بواد خصيب، وكانت تصنع إليه الجميل في ورود الظاهرة[4] والغِب. فلما ثمر بودها ماله، ذكر عندها ثاره، ووقف على صخرة وهَمَّ أن ينتقم منها، وكان أخوه ممن قتلته — فضربها، فلما وقيت ضربة فأسه والحقد يمسك بأنفاسه، ندم على ما صنع أشد الندم، وقال للحية مخادعًا: هل لك أن نكون خِلَّيْن، ودعاها بالسفه إلى حَلَف فقالت: «لا أفعل أنى أجدك فاجرًا مسحورًا،[5] تأبى لي صكة[6] فوق الرأس، ويمنعك من أربك قبر محفور، وقد وصف ذلك نابغة بني ذبيان، فقال:

وإني لألقى من ذوي الضغن منهم — وما أصبحت تشكو من البث ساهرة
كما لقيت ذات الصفا من حليفها — وكانت تريه المال غبا وظاهرة
فلما رأى أن ثمر الله ماله[٧] — فأصبح مسرورًا، وسيد مفاقرة[٨]
أكب[٩] على فأس بحد غُرابها[١٠] — مذكرة من المعاول باترة
وقام على جحر لها فوق صخرة — ليقتلها أو تخطئ الكف بادرة
فلما وقاها الله ضربة فأسه — وللبر عين لا تغمض ناظرة
فقال تعالي، نجعل الله بيننا — على مالنا، أو تنجزي لي آخره»
فقالت: «معاذ الله أفعل أنني — رأيتك مسحورًا، يمينك فاجرة
أبى لي قبر لا يزال مقابلي — وضربة فأس فوق رأس فاقرة»[١١]

وتقول حية أخرى: إني كنت أسكن دار الحسن البصري فيتلو القرآن ليلًا، فتلقيت الكتاب من أوله إلى آخره.

ويهكر[١٢] مع الأبرار المتقين لما سمع من تلك الحية، فتقول: «ألا تقيم عندنا برهة من الدهر! فإني إذا شئت انتفضت من إهابي[١٣] فصرت مثل أحسن غواني الجنة، لو ترشفت رضابي[١٤] لعلمت أنه أفضل من الدرياقة[١٥] التي ذكرها ابن مقبل في قوله:

سقتني بصهباء درياقة — متى ما تلين[١٦] عظامي تلن[١٧]

فيذعر منها ويذهب مهرولًا في الجنة، ويقول في نفسه: «كيف يركن إلى حية؟!» فتناديه: «هلم إن شئت اللذة، لو أقمت عندنا إلى أن تخبر ودنا وإنصافنا، لندمت إن كنت في الدار العاجلة قتلت حية أو عثمانًا.»[١٨] فيقول: «لقد ضيق الله على مراشف الحور الحسان أن رضيت بترشف هذه الحية».

عودة إلى حوريته

فإذا ضرب في غيطان من الجنة لقيته الجارية التي خرجت منها تلك الثمرة، فتقول: «إني لأنتظرك منذ حين، فما الذي شجنك[١٩] عن المزار؟ ما طالت الإقامة معك، فأمل بالمحاورة مسمعك!» فيقول: «كانت في نفسي مآرب من مخاطبة أهل النار، فلما قضيت من ذلك وطرًا عدت إليك، فاتبعيني بين كثب العنبر وأنقاء[٢٠] المسك»، فيتخلل بها أهاضب

الفردوس، ورياض الجنان، فيقول: أيها العبد المرحوم أظنك تحتذي بي فعال الكندي[٢١] في قوله:

فقمت بها أمشي، تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط[٢٢] مرحَّل[٢٣]
فلما أجزنا[٢٤] ساحة الحي[٢٥] وانتحى ... بنا بطن[٢٦] خبت[٢٧] ذي حِقاف[٢٨] عقنقل[٢٩]
هصرتُ[٣٠] بفَوْدِي رأسَها[٣١] فتَمايلتْ ... على هضيم الكَشْح[٣٢] رَيَّا المُخَلْخَل[٣٣]

فيقول: «العجب لقدرة الله! لقد أصبت ما خطر في السويداء[٣٤] فمن أين لك علم بالكندي، وإنما نشأت في ثمرة تبعدك من جن وأنيس؟ فتقول: إن الله على كل شيء قدير».

ويعرض له حديث امرئ القيس في دارة جلجل،[٣٥] فينشئ الله — جلت عظمته — حورًا يتماقلن[٣٦] في نهر من أنهار الجنة، وفيهن من تفضلهن، كصاحبة امرئ القيس، فيترامين بالترمد، وإنما هو كأجل طيب الجنة — ويعقر لهن الراحلة،[٣٧] فيأكل ويأكلن من بضيعها[٣٨] ما ليس تقع الصفة عليه، من متاع ولذاذة.

حديثه مع الرجاز

ويمر بأبيات ليس لها سموق[٣٩] أبيات الجنة فيسأل عنها، فيقال: «هذه جنة الرّجز.» فيقول: «تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المروي: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها.» وإن الرجز لمن سفساف القريض[٤٠] فصرتم أيها النفر فقصر بكم.» ويعرض له رؤية فيقول: «يا أبا الحجاف! ما كان أكلفك[٤١] بقواف ليست بالمعجبة، تصنع رجزًا على العين ورجزًا على الطاء وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة، ولم تكن صاحب مثل مذكور، ولا لفظ يستحسن!» فيغضب رؤبة ويقول: «ألي تقول هذا، وعني أخذ الخليل وكذلك أبو عمر بن العلاء، وقد غبرت[٤٢] في الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع إليك، مما نقله أولئك عني وعن أشباهي.» فإذا رأى ما في رؤبة من الانتخاء[٤٣] قال: «لو شبك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وإن غيرك أولى بالأعطية والصلات.» فيقول رؤبة: «أليس رئيسكم كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام؟»

فيقول: «لا فخر لك أن أستشهد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء،[٤٤] وكم روى النحاة عن طفل ما له في الأدب.» فيقول رؤبة: «أجئت لخصامنا في

هذا المنزل؟ فامض لطيتك[٤٥] فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله!» فيقول: «أقسمت ما يصلح كلامكم للثناء، تصكون مسامع الممتدح بالجندل. ومتى خرجتم عن صفة جمل ترثون له من طول العمل، إلى صفة فرس أو كلب، فإنكم غير الراشدين.» فيقول رؤبة: «إن الله — سبحانه وتعالى — قال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ[٤٦] فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾،[٤٧] وإن كلامك لمن اللغو.» فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة، سمع العجاج، فجاء يسأل المحاجزة.[٤٨]

نعيم الخلد

ويذكر الشيخ ما كان يلحق أخا الندام، من فتور في الجسد من المدام، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن ينزف[٤٩] له لب.

فإذا هو يخال في العظام الناعمة دبيب نمل، فيترنم بقول إياس بن الأرت:

أعاذل لو شربت الخمر حتى ... يظل لكل أنملة دبيب
إذن لعذرتني وعلمت أني ... لما أتلفت من مالي مصيب

ويتكئ على مفرش من السندس، ويأمر بالحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة، وإنما هو زبرجد أو عسجد، فيكون البارئ فيه حلقًا من الذهب تطيف[٥٠] به من كل الأشراء[٥١] حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الجواري المشتبهة بالجمان[٥٢] واحدة من تلك الحلق، فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود، فكلما مر بشجرة نضحته[٥٣] أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور والمسك، وتناديه الثمرات من كل أوب وهو مستلق على الظهر: «هل لك يا أبا الحسن هل لك؟» فإذا أراد عنقودًا من العنب أو غيره انقضب[٥٤] له من الشجرة بمشيئة الله وحملته القدرة إلى فيه، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين».

هوامش

(١) أتى بالحجة.

(٢) متهورون أو متحيرون، أي أنكم واقعون في الضلالة بغير مبالاة ولا روية، أي خابطون فيها على غير هدى.

(٣) أقسمت.

(٤) الظاهرة: الإبل الواردة كل يوم نصف النهار.

(٥) مفسدًا مخادعًا.

(٦) ضربة شديدة.

(٧) نماه وكثره.

(٨) سد مفاقره، أي اغتنى وسد وجوه فقره.

(٩) أقبل ولزمه.

(١٠) حدها.

(١١) الفاقرة: الداهية التي تكسر الفقار، وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجز، أي خرزات الظهر، ومعناها هنا شديدة محطمة.

(١٢) يشتد عجبه.

(١٣) جلدي.

(١٤) ريقي المرشوف.

(١٥) الدرياقة: القطعة من الدرياق، لغة في الترياق، وهو شقاء السم.

(١٦) تجعل عظامي لينة.

(١٧) يقال: لَيَّنه فلان لي.

(١٨) العثمان فرخ الثعبان.

(١٩) حبسك أو منعك.

(٢٠) جمع نقا، وهي القطعة من الرمل تنقاد محدودبة.

(٢١) امرئ القيس.

(٢٢) المرط كساء من خز أو صوف، وقد تُسمى الملاءة مرطًا.

(٢٣) منقش بنقوش تشبه رحال الإبل، ومعنى البيت أنها حين صحبتني أخذت تجر مرطها على آثار أقدامنا لتعفيها به أثناء سيرنا.

(٢٤) قطعنا.

(٢٥) فناء الحي أو رحبته.

(٢٦) البطن: مكان مطمئن حوله أمكن مرتفعة.

(٢٧) الخبت: الأرض المطمئنة.

(٢٨) جمع حقف، وهو رمل مشرف معوج.

(٢٩) العقنقل: المنعقد المتلبد من الرمل، ومعنى البيت: لما جاوزنا فناء الحي وصرنا إلى أرض مطمئنة تحوطها مرتفعات وتلال من الرمل ... إلخ.

(٣٠) جذبت.

(٣١) جانبي رأسها.

(٣٢) ضامر الكشح وهو منقطع الأضلاع.

(٣٣) المخلخل موضع الخلخال من الساق، وريا المخلخل معناها هنا كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما، ومعنى البيت: أنه جذب إليه ذؤابتيها فمالت إليه، ثم أخذ في وصفها فقال: إنها ضامر الكشح ممتلئة ساقاها لحمًا.

(٣٤) حبة القلب، أي أصبت ما في نفسي.

(٣٥) يشير إلى حادثته مع حبيبته وابنة عمه عنيزة والنساء في دارة جلجل، وقد ذكر تلك القصة في معقلته فقال:

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل

... إلخ.

وقد امتلأت بها كتب الأدب، فلا حاجة لذكرها هنا، وأشار أبو العلاء إلى هذه الحادثة في لزومياته، في قوله:

أين امرؤ القيس والعذارى   إذ مال من تحته الغبيط؟

(٣٦) يتغاططن.

(٣٧) الراحلة: النجيب الصالح لأنْ يرحل من الإبل والقوي على الأسفار، وهو يشير بذلك إلى قول امرئ القيس: «ويوم عقرت للعذارى مطيتي».

(٣٨) لحمها.

(٣٩) ارتفاع أو طول.

(٤٠) ارجع الى الجزء الخاص بحديثه مع امرؤ القيس لتزداد اقناعا بتحامله على الرجاز.

(٤١) أي ما كان أشد حبك وولعك.

(٤٢) مكثت أو ظلت.

(٤٣) التكبر والتعاظم.

(٤٤) حمقاء، وقيل الوكعاء هي الوجعاء أي التي تسقط وجعًا.

(٤٥) أي: امض لنيتك التي انتويتها أو اذهب إلى الناحية التي كنت تقصدها أو امض إلى سبيلك.

(٤٦) اللغو: ما لا يعتد به من الكلام، أو القول الباطل الذي يصدر لا عن روية وفكر.

(٤٧) فعل ما لا يحل.

(٤٨) المسالمة.

(٤٩) من غير أن يذهب له عقل.

(٥٠) تحيط به.

(٥١) الأنحاء، مفردها شرى.

(٥٢) اللؤلؤ.

(٥٣) رشته.

(٥٤) انقطع.

الجزء الثاني

الرد على رسالة ابن القارح

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف

أبو العلاء

الرد على رسالة ابن القارح

وقد أطلت في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة على الرسالة: فهمت قوله: «جعلني الله فداءه، لا يذهب به إلى النفاق.» وبعد ابن آدم من الوفاق، وهذه غريزة خص بها الشيخ دون غيره، وتعايش العالم بخداع، وأضحوا من الكذب في إبداع.[١]

لو قالت شيرين الملكة لكسرى: «جعلني الله فداءك» لَخَالبته في ذلك ونافقته، وإن راقته ووافقته، على أنه أخذها من حال دنية فجعلها في النعمى، وعتبه في ذلك الأحباء وجرت لهم في ذلك قصص وأنباء، وقيل له — فيما ذكر: «كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس؟» فضرب لهم المثل بالقدح، جعل في الإناء الشعر والدم، وقال للحاضر: «تجيب نفسك لشرب ما فيه؟» فقال: «إنها لا تطيب وهي بالأنجاس».

فأراق ذلك الشيء وغسله، وجعل فيه من بعد مدامًا، وعرضها على الندامى، فكلهم بهش[٢] أن يشرب، فقال: «هذا مثل شيرين».

كم من شبل نافق أسدًا، وأضمر له غلًّا وحسدًا، وضيغم نقم على فرهود، وود لو دفنه، والفرهود ولد الأسد، وهو — آنس الله الإقليم بقربه — أجلُّ من أن يشرح له مثل ذلك، وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة في يد غلام مُتَرَعْرِعٍ،[٣] ليس إلى الفَهْم بمُتَسَرِّع، فتستعجم عليه اللفظة، فيظل معها في مثل القيد.

يقول القائل: «بأبي أنت!» وإنما جامل أو سدج[٤] ولعل بعض العتارف[٥] يلفظ إلى البائضة حبة البر ويأنس بها، وفي فؤاده من الضغن أعاجيب.

وكيف يقول الخليل المخلص: إن حنينه حنين واله من النوق، وهي الذاهلة أن حمل عليها بعض الوسوق، وإنما تسجع ثلاثًا أو أربعًا، ثم يكون سلوها متبعًا.

فأما الحمامة الهاتفة، فقد رزقها البارئ صيتًا شائعًا، وظل وصفها بالأسف ذائعًا، تنهض إلى التقاط حب، وتعود إلى جوز لها[٦] ذات أب[٧] ثان هي صادفته أكيل باز، فما هي إلا مثل الحيوان، نمل حالها في أقصر أوان، وقد زعم زاعم لا يصدق، أن الحمائم في هذا العصر، يبكين مقعدًا هلك في عهد نوح، وأن دوامها على ذلك لدليل الوفاء.[٨]

وكيف يعتب الزمن على تجافيه، وإنما حشى بشر وغدر وما أقل صدق الآلاف!

وليس خليلي بالملول ولا الذي إذا غبت عنه باعني بخليل

وأما ما ذكره عن حالي، فطال ما أعطي الوسن سعودا[٩] وأحلف كيمين امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

إني لمكذوب عليه، كما كذبت العرب على الغول، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضب، وكما تكلمت على لسان الضبع وهي خرساء يظن أني من أهل العلم[١٠] وما أنا له بالصاحب وتلك لعمري بلية، والعلوم تفتقر إلى ممارسة، ويقال إني من أهل الدين، ولو ظهر ما وراء السدين،[١١] ما اقتنع لي الواصف بسب.

وكيف تدعي للعلج الوحشي، أن تغريده في السحر أشعار موزونة، وهل يصور لعاقل أن الغراب الناعب صاج بتشبيب؟ فبعد من زعم أن الحجر متكلم، وأنه عند الضرب متألم.

ولو أني لا أشعر بما يقال في، لأرحت، وكنت كالوثن سواء عليه أن وقر وأن أوقر، وكالأرض السبخة ما نحفل أن قيل هي مريعة، أو قيل بئست الزريعة.[١٢]

وكيف أغتبط إذا تخرصَ علي، وعزيت المعرفة إلي، ولست آمنًا في العاقبة فضيحة، ومثلي إن جذلت بذلك مثل من اتهم بمال، فسرَّه قول الجهلة أنه لحلف اليسار، فطلب منه بعض السلاطين أن يحمل إليه جملة وافرة، فصادف أكذوبة، وضربه كي يقر، وقتل في العقوبة، وقد شهد الله أني أجذل بمن عابني؛ لأنه صدق فيما رابني، واهتم لثناء مكذوب[١٣] فغفر الله لمن ظن حسنًا بالمسيء، ولولا كراهيتي حضورًا بين الناس، وإيثاري أن أموت ميتة علهب[١٤] في كناس،[١٥] فاجتمع معي أولئك الجائلون، لصح أنهم عن الرشد حائلون.

وأما وروده حلب — حرسها الله — فلو كانت تعقل، لفرحت به فرح الشمطاء شحط سليلها الواحد، وقدم بعد أعوام. فالحمد لله الذي أعاد البارق إلى الغمام الوسمي.

وإني لأعجب من تمالئ جماعة على أمر ليس بالحسن ولا الطاعة، قد كدت ألحق برهط العدم، من غير الأسف ولا الندم، ولكنما أرهب قدومي على الحبار، ولم أصلح نخلتي يابار، وقيل لبعض الحكماء: «إن فلانًا تلطف حتى قتل نفسه، وكره أن يمارس بدائع الشرور، وأحب النقلة إلى منازل السرور.» فقال الحكيم قولًا معناه: «أخطأ ذلك الشاب، هلا صبر على صروف الزمان، فإنه لا يشعر علام يقدم».

ولولا حكمة الله — جلت قدرته — وأنه حجز الرجل عن الموت بالخوف من العلز[16] والفوت[17] لرغب كل من احتدم غضبه، وكلَّ عن ضريبة مقضبة، أن تترع[18] له من الموت كؤوس.[19]

أبو القطران الأسدي

وأما أبو القطران الأسدي، فصاحب غزل وتبطُّل، ومن أين لذلك الشخص ما وهبه الله للشيخ من وفاء، وإنما عاشر أبو القطران أعبدًا في الإبل وآميًا، ولعله لو صادف غانية تزيد على وحشية بشق الأبلمة[20] لسلاها، وإنما ديدن ذلك الرجل ونظرائه صفة ناقة أو ربع، ولو حضر أخوته حضرها الشيخ، لعاد كما قال القائل:

فلو كنت عذري العلاقة لم تبت بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

وهو — قدر الله له ما أحب — قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وقد أقام بالعراق زمنًا طويلًا وبالعراق مملكة فارس، وهم أهل الشرف والظرف، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشرة سجاياهم، وعاطوه الأكؤس آلات التصاوير، كما قال الحكمي:[21]

تدور علينا الكأس في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدريها[22] بالقسي الفوارس[23]

وما أشك أنه — أمتع الله الآداب ببقائه — لو رزق محاورة أبي الأسود على عرجه وبخله، لكانت مقته له أبلغ من مقة مهدي ليلاه، ولو كان أبو عبيدة أزفر الفم، لما أمنت مع كلفه[24] بالأخبار أن يقبله شق البلسة.[25] وفي الحديث عن عائشة — رحمة الله

عليها: «كان رسول الله ﷺ يقبلني شق التينة.» وروى بعضهم شق النمرة، وذلك أن يأخذ الشفة العليا بيده والسفلى بيده الأخرى، ويقبل ما بين الشفتين.

وأما من فقده من الأصدقاء لما دخل حلب — حرسها الله — فتلك عادة الزمن، يبدل من الأبيات المسكونة قبورًا، وإن رمس الهالك لبيت الحق، على أنه يغني الثاوي به بعد عدم ويكفيه المؤونة.[٢٦]

قال الضبي:

ولقد علمت بأن قبري حفرة　　ما بعدها خوف علي ولا ندم
فأزور بيت الحق زورة ماكث　　فعلام أحفل ما تقوض وانهدم

وما زالت العرب تسمي القبر بيتًا، وإن كان المنتقل إليه ميتًا.

قال الراجز:

اليوم يبني لدويد بيته　　يا رب بيت حسب بنيته
ومعصم ذي برة[٢٧] لويته　　لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحدًا كفيته

وأما الفصل الذي ذكر فيه الخليل، فقد سقط منه اسم الذي غلا في،[٢٨] ومن كان فغفر الله جرائمه، فقد أخطأ على نفسه فيما زعم وعلى، وإني لأكره بشهادة الله تلك الدعوى المبطلة كراهة المسيح من جعله رب العزة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.[٢٩]

أمثال العرب

وأما حلب — حماها الله — فإنها الأم البرة، وما أحسبها — إن شاء الله — تظاهر بذميم العقوق، ولا تغفل المفترض من الحقوق، ووحشية يحتمل أن يكون الشيخ جعلها نائبة عمن فقده من الإخوان الذين عدم نظيرهم؟ وكذلك تجري أمثال العرب، يكنون فيها بالاسم عن جميع الأسماء، مثال ذلك أن يقول القائل:

فلا تشلل يد فتكت بعمرو فإنك لن تذل ولن تضاما

يجوز أن يرى الرجل رجلًا قد فتك بمن اسمه حسان أو غير ذلك، فيتمثل بهذا البيت، فيكون عمرو فيه واقعًا على جميع من يتمثل له به، وكذلك قول الراجز: أوردها سعد وسعد مشتمل.[٣٠]

صار ذلك مثلًا لكل من عمل عملًا لم يحكمه، فيجوز أن يقال لمن اسمه خالد أو بكر أو ما شاء الله من الأسماء، ويضعون في هذا الباب المؤنث موضع المذكر، والمذكر موضع المؤنث، فيقولون للرجل: «الصيف ضيعت اللبن.» وإذا أرادوا أن يخبروا بأن المرأة كانت تفعل الخير ثم هلكت فانقطع ما كانت تفعله، جاز أن يقولوا: «ذهب الخير مع عمرو بن جمعة.» وهذا كثير.

شكاة الأدباء

وأما شكواه إلي فإني وإياه لكما قيل في المثل: «الثكلى تعين الثكلى.» وعلى ذلك حمل الأصمعي قول أبي دؤاد.

ويصيح أحيانًا كما استمع المضل دعاء ناشد:[٣١]

كلانا بحمد الله مضل فعلى من نحمل؟ وعلى من ندل؟

أما المطية فآلية، وأما المزادة فخالية:

يشكو إلى جملي طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

ولا أرتاب في أنه يحفظ قول الفزاري، منذ خمسين حجة أو أكثر:

أعيين هلا إذ بليت بها كنت استعنت بفارغ العقل
أقبلت تبغي الغوث من رجل والمستغاث إليه في شغل

ولم يزل أهل الأدب يشكون الغير في كل جيل، وهو يعرفه الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله، وقال: «إنهم أهل صناعة مجفرة.» وأحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين، وإنما ينجح بعضهم، ثم لا يلبث أن تزلَّ قدمه، وإذا كان الأدب على عهد بني أمية يقصد أهله بالجفوة، فكيف يسلمون من بأس عند مملكة بني العباس؟ وإذا أصابتهم المحن في أيام الرشيد، فكيف يطمع لهم بالحظ؟ ومن بغى التكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه في شن[٣٢] غير ثقة على الوديعة.

وأما الذين ذكرهم من المصحفين، فغير البررة ولا المنصفين، وما زال التتفل[٣٣] يعرض لأذاة الأسد، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد.

ما يضر البحر أمسى زاخرًا إن رمى فيه غلام بحجر

* * *

أوكلما طن الذباب أروعه إن الذباب إذن علي كريم

وإن حساد البارع لكما قال الفرزدق:

فإن تهج آل الزبرقان فإنما هجوت الطوال الشم من آل يذبل
وقد نبح الكلب النجوم ودونها فراسخ تقصي ناظر المتأمل

أبو الطيب المتنبي

فأما من ذكره من قول أبي الطيب: «أذم إلى هذا الزمان أهيله.» فقد كان الرجل مولعًا بالتصغير، لا يقنع منه بخلسة المغير، كقوله:

من لي بفهم أهيل عصر يدعي أن يحسب الهندي فيهم باقل

وقوله: «مقالي للأحيمق يا حليم».
وقوله: «ونام الخويدم عن ليلنا».
وقوله: «أفي كل يوم تحت ضِبني شُوَيْعر».

وغير ذلك مما هو موجود في ديوانه، ولا ملامة عليه؛ إنما هي عادة صارت كالطبع، تغتفر مع المحاسن، وهذا البيت الذي أوله: «أذم إلى هذا الزمان أهيله.» إنما قاله في علي بن محمد بن سيار بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة، والشعراء مطلق لهم ذلك؛ لأن الآية شهدت عليهم بالتخرص وقول الأباطيل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ❁ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

وأما ما ذكره من حكاية القطربلي وابن أبي الأزهر، فقد يجوز مثله، وما وضح أن ذلك الرجل حبس بالعراق، فأما بالشام فحبسه مشهور، وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: «هو من النبوة.» أي المرتفع من الأرض، وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه مَنْ هو دونه، وإنما هي مقادير، يظفر بها من وُفق، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألهًا[٣٤] فمن ذلك قوله: «ولا قابلا إلا لخالقه حكمًا» وقوله:

ما أقدر الله أن يُخزي بَرِيَّته ولا يصدق قومًا في الذي زعموا

وإذا رجع إلى الحقائق، فنُطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان؛ لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق،[٣٥] ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدينًا، وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض،[٣٦] ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن ملحدون.

دعبل بن علي

وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع، وإنما غرضه التكسب، ولا أرتاب في أن دعبلًا كان على رأي الحكمي وطبقته، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشية.

أبو نواس

وقد اختلف في أبي نواس، ادعي له التأله، وأنه كان يقضي صلوات نهاره في ليله، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه.

سذاجة العرب

وذلك أن العرب جاءها النبي ﷺ وهي ترغب إلى القصيد، وتقصر هممها عن القصيد، فاتبعه منها متبعون، والله أعلم بما يوعون، فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسق ملكه، مازج العرب غيرهم من الطوائف، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق، فمالت منهم طائفة كثيرة.

رسالة آدم

ولم يزل الإلحاد في بني آدم على ممر الدهور، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم — صلى الله عليه وسلم — بعث إلى أولاده، فأنذرهم بالآخرة، وخوَّفهم من العذاب، فكذبوه وردوا عليه قوله، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم.

زندقة قريش

وبعض العلماء يقول: «إن سادات قريش كانوا زنادقة، وما أجدرهم بذلك! وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر، وتروى لشداد بن الأسود الليثي:

ألمت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام

وكائن بالطوى طوى بدر		من الأحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لا تكري		على الكأس بعد أخي هشام
وبعد أخي أبيه وكان قرما[٣٧]		من الأقرام شراب المدام
ألا من بلغ الرحمن عني		بأني تارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زايل منكبيه		فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة[٣٨] أن سنحيا		وكيف حياة أصداء[٣٩] وهام
أتترك أن ترد الموت عني		وتحييني إذا بليت عظامي

ولا يدعي مثل هذه الدعاوى إلا من يستبسل وراءها للحمام، ولا يأسف له عند المام.»

عودة إلى أبي الطيب المتنبي

وحدثت أن أبا الطيب، لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم، قالوا له وقد تبينوا دعواه: ها هنا ناقة صعبة، فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتحيل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة، وتنكرت برهة، ثم سكن نفارها، ومشت مشي المسمحة،[٤٠] وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها، فعجبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

وحدثت أيضًا أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام، فجرحته جرحًا مفرطًا، وأن أبا الطيب نقل عليها من ريقه، وشد عليها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: «لا تحلها في يومك. وعد له أيامًا وليالي، وأن ذلك الكاتب قَبِلَ منه، فبرئ الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون هو كمحبي الأموات».

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد، إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر.

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئًا من المطاعم مسمومًا، وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل.

والذين رووا ديوان أبي الطيب، يحكون أنه ولد سنة ثلاثمئة وثلاث، وكان طلوعه إلى الشام سنة إحدى وعشرين، فأقام فيه برهة ثم عاد إلى العراق، ولم تطل مدته هناك، والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام، إلا قوله:

كفى، أراني — ويك — لومك الوما

الدهر

وأما شكيته أهل الزمان إليه، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذم الدهر[٤١] حتى جاء الحديث: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر.» وقد عرف معنى هذا الكلام، وأن باطنه ليس كظاهره؛ إذ كان الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لم يذهب أحد منهم إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود، وقد جاء في الكتاب الكريم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

وقول بعض الناس: «الزمان حركة الفلك؛ لفظ لا حقيقة له. وفي كتاب سيبويه ما يدل على أن الزمان عنده مضي الليل والنهار، وقد حددته حدًّا ما أجدره أن يكون قد سبق إليه إلا أني لم أسمعه، وهو أن يقال: الزمان شيء أقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات، وهو في ذلك ضد المكان؛ لأن أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف. فأما الكون فلا بد من تشبثه بما قل وكثر».[٤٢]

الدهر لاءم بين ألفتنا　　　وكذاك فرق بيننا الدهر

وقول أبي صخر:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها　　　فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

لم يدع أن أحدًا منهم كان يقرب للأفلاك القرابين، ولا يزعم أنها تعقل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان.

وكان في عبد القيس شاعر يقال له شاتم الدهر، وهو القائل:

ولما رأيت الدهر وعرًا سبيله   وأبدى لنا وجهًا أزب مجدعا
وجبهة قرد كالشراك ضئيلة   وأنفًا ولرى بالعثانين أخدعا
ذكرت الكرام الذاهبين أولي الندى   وقلت لعمرو والحسام ألا دعا

الزندقة والزنادقة

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين، فأجره الله عليه، كما أجره على الظمأ في طريق مكة، واصطلاء الشمس بعرفة، ومبيته بالمزدلفة، ولا ريب أنه ابتهل إلى الله سبحانه في الأيام المعدودات، أن يثبت هضاب الإسلام.

ولكن الزندقة داء قديم، وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته، ثم تاب فزعًا من القتل، لم تقبل توبته، وليس كذلك غيرهم من الكفار؛ لأن المرتد إذا رجع، قبل منه الرجوع، ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون، وقد كانت ملوك الفرس تقتل على الزندقة. والزنادقة هم الذين يسمون الدهرية، ولا يقولون بنبوة ولا كتاب.

بشار بن برد

وبشار إنما أخذ ذلك عن غيره، وقد روي أنه وجد في كتبه رقعة مكتوب فيها: «إني أردت أن أهجو فلان بن فلان الهاشمي، فصفحت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ».

وزعموا أنه كان يشار سيبويه، وأنه حضر يومًا حلقة يونس بن حبيب، فقال: «هل هنا من يرفع خبرًا؟» فقالوا: «لا.» فأنشدهم:

بني أمية هُبوا من رقادكم   إن الخليفة يعقوب بن داود
ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا   خليفة الله بين الناي والعود

وكان في الحلقة سيبويه، فيدعي بعض الناس أنه وشى به، وسيبويه فيما أحسب كان أجل موضعًا من أن يدخل في هذه الدنيات.

وذكر من نقل أخبار بشار؛ أنه توعد سيبويه بالهجاء، وأنه تلافاه واستشهد بشعره، ويجوز أن يكون استشهاده به، على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس ومجامع القوم.

وأصحاب بشار يروون له هذا البيت:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب

وفي كتاب سيبويه نصف هذا البيت الآخر، وهو في باب الإدغام لم يسم قائله، وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي.

ويقال: إن يعقوب بن داود وزير المهدي، تحامل على بشار حتى قتل. واختلف في سنه، فقيل: كان يومئذ ابن ثمانين سنة، وقيل أكثر، والله العالم بحقيقة الأمر.

ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار، وإنما ذكرت ما ذكرت فيما تقدم؛[٤٣] لأني عقدته بمشيئة الله، وإن الله لحليم وهاب.

وذكر صاحب كتاب الورقة، جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن قبله، ووصفهم بالذندقة، وسرائر الناس مغيبة، وإنما يعلم بها علام الغيوب، وكانت تلك الحال تكتم في ذلك الزمان خوفًا من السيف، فالآن ظهر نجيث[٤٤] القوم وانقاضت التريكة[٤٥] عن أخبث رأل.[٤٦]

عودة إلى أبي نواس

أما قول الحكمي: «تيه مغن وظرف زنديق» فقد عيب عليه هذا المعنى، وقيل إنه أراد رجلًا من بني الحارث كان معروفًا بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان.

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس؛ فقد شهر بالزندقة، ولم يقتل حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك. ويروي لأبيه عبد القدوس:

كم أهلكت مكة من زائر   خربها الله وأبياتها
لا رزق الرحمن أحياءها   وأشوت الرحمة أمواتها

ولقد كان لصالح ابنٌ، حبس على الزندقة حبسًا طويلًا، وهو الذي يروى له:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها   فما نحن بالأموات فيها ولا الأحيا
إذا ما أتانا زائر متفقد   فرحنا، وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وأما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الختل، فصلى الله على سيدنا محمد، فقد روي عنه أنه قال: «بُعثت بالسيف، والخير مع السيف، والخير في السيف، والخير بالسيف.» وفي حديث آخر: «لا تزال أمتي بخير ما حملت السيف.» والسيف حمل صالحًا[٤٧] على التصديق، ووده عن رأي الزنديق.[٤٨]

الصناديقي

وأما المنسوب إلى الصناديق، فإنما يحسب من الزناديق، وأحسبه الذي كان يعرف بالمنصور، ظهر سنة سبعين ومئتين، وأقام برهة باليمن، وفي زمانه كانت القيان تلعب بالدف، وتقول:

خذي الدف يا هذه والعبي   وبثي فضائل هذا النبي
تولى نبي بني هاشم   وقام نبي بني يعرب
فما تبتغي السعي عند الصفا   ولا زورة القبر في يثرب
إذا القوم صلوا، فلا تنهضي   وأن صوموا، فكلي واشربي

* * *

ولا تحرمي نفسك المؤمنين   من أقربين ومن أجنبي[٤٩]
فكيف حللت لذاك الغريـ   ـب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه   ورواه في عامه المجدب
وما الخمر إلا كماء السحا   ب طلق، فقدست من مذهب

فعلى معتقد هذه المقالة بهلة المبتهلين.

وهذه الطبقة — لعنها الله — تستعبد الطغام بأصناف مختلفة.

وقد كان باليمن رجل يحتجب في حصن له، ويكون الواسطة بينه وبين الناس خادمًا له أسود؛ قد أسماه جبريل، فقتله الخادم في بعض الأيام وانصرف، فقال بعض المجان:

تبارك الله في علاه　　فر من الفسق جبرئيل
وضل من تزعمون ربا　　وهو على عرشه قتيل

ويقال إنه حمله على ذلك ما كان يكلفه من الفسق، وإذا طمع بعض هؤلاء، فإنه لا يقنع بالإمامة، ولا النبوة، ولكنه يرتفع صعدًا في الكذب.

ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه الأمور العظائم، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى ذلك بعين الغبي.

ربيعة بن أمية بن خلف الجحمي

وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجحمي جرى له مع أبي بكر الصديق — رحمه الله — خطب، فلحق بالروم، ويروى أنه قال:

لحقت بأرض الروم غير مفكر　　بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة　　فما حرم الله من السلاف[٥٠] من الخمر
إذا أمرت[٥١] تيم بن مرة فيكم　　فلا خير في أرض الحجاز ولا مصر
فإن يك إسلامي هو الحق والهدى　　فإني قد خليته لأبي بكر

وافتن الناس في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية، فكان ذلك تنطسًا في الكفر، وجمعًا للمعصية، وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه.

سمير بن أدكن

ولما أجلى عمر بن الخطاب — رحمة الله عليه — أهل الذمة عن جزيرة العرب، شق ذلك على الجالين، فيقال: إن رجلًا من يهود بني خيبر، يعرف بسمير بن أدكن، قال في ذلك:

يصول أبو حفص علينا بدرة[٥٢] رويدك، إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط لتشبع، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقًا ما ظهرتم علينا، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين، فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

وما زال اليمن منذ كان معدنًا للمتكسبين بالتدين، والمحتالين على السحت، وحدثني من سافر إلى تلك الناحية أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر، فلا يعدم جباية من مال، يصل بها إلى خسيس الآمال.

القرامطة

وحكي لي أن للقرامطة بالأحساء بيتًا يزعمون أن إمامهم يخرج منه، ويُقيمون على باب ذلك البيت فرسًا بسرج ولجام، ويقولون للهمج والطغام: «هذا الفرس لركاب المهدي، يركبه متى ظهر.»[٥٣] وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل، وتَوَصُّل إلى الملكة وتضليل. ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم، لما حضرته المنية، جمع أصحابه، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: «إني قد عزمت على النقلة، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدًا، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء.» فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التي يحب أن يؤمن فيها الكافر، ويؤوب إلى آخرته المسافر.

الوليد بن يزيد

وأما الوليد بن يزيد، فكان عقله عقل وليد، وقد بلغ سن الكهل. وقد رويت له أشعار، يلحق به منها العار، كقوله:

ادنيا مني خليلي عبد لا، دون الإزار
فلقد أيقنت أني غير مبعوث لنار
واتركا من يطلب الجنة يسعى في خسار
سأُرَوِّض الناس حتى يركبوا دين الحمار

فالعجب لزمان صار مثله إمامًا، ولعل غيره ممن ملك يعتقد مثله أو قريبًا، ولكن يساير ويخاف تثريبًا. ومما يروى له:

أنا الإمام الوليد مفتخِرًا أجرُّ بُردي، وأسمع الغزلا
أسحب ذيلي إلى منازله ولا أبالي من لام أو عذلا
ما العيش إلا سماع محسنة وقهوة تترك الفتى ثملا
لا أرتجي الحور في الخلود، وهل يأمل حور الجنان مَن عقلا؟
إذا حَبتك الوصال غانية فجازها بذلها كمن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به — دخل القصر وأغلق بابه وقال:

دعوا لي هندًا والرباب وفَرْتَني ومسمعة، حسبي بذلك مالا
خذوا ملككم، لا ثَبَّت الله ملككم فليس يساوي بعد ذلك عقالا
وخلُّوا سبيلي قبل عير وما جرى ولا تحمدوني أن أموت هزالا

فأُلب عن تلك المنزلة أي ألب، ورؤي رأسه في فم كلب، كان حق الخلافة أن تفضي إلى من هو بنسك معروف، لا تصرفه عن الرشد صروف، ولكن البلية خلقت مع الشمس، فهل يخلص من سكن في رمس؟

أبو عيسى بن الرشيد

وأما أبو عيسى بن الرشيد، فإن صح ما روي عنه فقد باين بذلك أسلافه، وما يحفل ربه بالعبيد، صائمين للخيفة ولا مفطرين؛[٥٤] وكان يستحسن شعره في البيتين والثلاثة. وأنشد لي الصولي في نوادره:

لساني كتوم لأسراره ودمعي نموم بسري مذيع
ولولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

فإن كان فر من صيام شهر؛ فلعله يقع في تعذيب الدهر.

الجنابي

وأما الجنابي،[٥٥] فلو عوقب بلد بمن يسكنه، لجاز أن تؤخذ به جنابة ولا يقبل لها إنابة، ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى، أن لا تزر وازرة وزر أخرى، فعليه اللعنة.

العلوي البصري

وأما العلوي البصري، فقد رويت له أبيات تدل على تألُّهٍ، وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه، والأبيات:

قتلتُ الناس إشفاقًا على نفسي كي تبقى
وحزت المال بالسيف لكي أنعم لا أشقى
فمن أبصر مثواي فلا يظلم إذن خلقا
فواويلي إذا ما مت عند الله ما ألقى
أخلدًا في جوار الله أم في ناره ألقى

وأنشدني بعضهم أبياتًا قافية طويلة الوزن، وقافيتها مثل هذه القافية، قد نسبت إلى عضد الدولة، وقيل إنه أفاق في بعض الأيام فكتبها على جدار المنزل الذي كان فيه، وقد نحل فيها أبيات البصري وأشهد أنها متكلَّفة، صنعها رقيع من القوم، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط.

وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا رخمة، فقالوا: رحمة، فلا أصدق بما يجري مجراها، والكذب غالب ظاهر، والصدق خفي متضائل.[٥٦]

وكذلك ادعاء من يدعي أن عليًّا — عليه السلام — قال: «تهلك البصرة بالزنج.» فصحَّفها أهل الحديث بالريح. لا أومن بشيء من ذلك ولم يكن عليٌّ — عليه السلام — ممن يُكشف له الغيب، وفي الكتاب العزيز ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾. وفي الحديث المأثور: «لا يعلم ما في غد إلا الله».

ولا يجوز أن يُخبر مُخبِر منذ مئة سنة أن أمير حلب — حرسها الله — في سنة أربع وعشرين وأربعمئة[٥٧] اسمه فلان بن فلان وصفته كذا، فإن ادعى ذلك مُدَّعٍ فإنما هو متخرِّص كاذب.

النجوم

وأما النجوم فإنما لها تلويح لا تصريح، وحُكي أن الفضل بن سهل كان يتمثل كثيرًا بقول الراجز:

لئن نجوت ونجت ركائبي من غالب ومن لفيف غالب
إني لنجاء من الكرائب

وإن غالبًا كان في مَن قتله، فهذا يتفق مثله، وأجدر بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة، فأما ما تمثله بالشعر فغير مستنكَر.

وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا، فيمكن أن يقترن معنى بلفظ، على أن في الأيام عجائب، وفوق كل ذي علم عليم.

الألمعي

وقد حكي أن إياس بن معاوية القاضي كان يظن الأشياء فتكون كما ظن، ولهذه العلة قالوا رجل نقاب[٥٨] وألمعي، قال أوس:

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

الحلاج

وكم افتري للحلاج،[٥٩] والكذب كثير. وجميع ما ينسب إليه بما لم تجر العادة بمثله، فإنه المين لا أصدق به. ومما يُفتعل عليه أنه قال للذين قتلوه: أتظنون أنكم إياي تقتلون، إنما تقتلون بغلة المادراني، وإن البغلة وجدت في اصطبلها مقتولة.

وفي الصوفية إلى اليوم من يرفع شأنه، وبلغني أن ببغداد قومًا ينتظرون خروجه، وأنهم يقفون بحيث صُلب على دجلة، يتوقعون ظهوره،[٦٠] وليس ذلك ببدع من جهل الناس.

يزيد بن معاوية

وقد روي أن يزيد بن معاوية كان له قرد يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل في الحلبة.

رجعة إلى الحلَّاج

وأما الأبيات التي على الياء:

يا سر سر يدق حتى — يجل عن وصف كل حي
وظاهرًا باطنًا تبدّى — من كل شيء لكل شي
يا حملة الكل لست غيري — فما اعتذاري إذن إلي

فلا بأس ينظمها في القوة، ولكن قوله «إلي» عاهة في الأبيات، وكذلك قوله «الكل»، فإن إدخاله الألف واللام مكروه.

مذهب الحلول

وينشد لفتى كان في زمن الحلاج:

إن يكن مذهب الحلول[٦١] صحيحًا — فإلهي في حرمة الزجاج

عرضت في غلالة بطراز　　بين دار العطار والثلاج
زعموا لي أمرًا وما صح لكن　　هو من إفك شيخنا الحلاج

وهذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصر بعد عصر. ويقال: إن فرعون كان على مذهب الحلولية، فلذلك ادعى أنه رب العزة.

وحكي عن رجل منهم أنه كان يقول في تسبيحه: «سبحانك سبحاني، غفرانك غفراني.» وهذا هو الجنون، إنما من يقول هذا القول معدود في الأنعام. وقال بعضهم:

أنا أنت بلا شك　　فسبحانك سبحاني
وإسخاطك إسخاطي　　وغفرانك غفراني
ولم أخلد يا رب　　إذا قيل هو الزاني؟

وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمر يلقنه صغير عن كبير: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. ويروى لبعض أهل هذه النحلة:

رأيت ربي يمشي بلا لكه　　في سوق يحيى، فكدت أنفطر
فقلت: «هل في اتصالنا طمع»　　فقال: «هيهات، يمنع الحذر»
ولو قضى الله ألفة بهوى　　لم يك إلا السجود والنظر

التناسخ

وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ،[٦٢] وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند، وقد كثر في جماعة من الشيعة، نسأل التوفيق والكفاية. وينشد لرجل من النصيرية:

أعجبي أمّنا لصرف الليالي　　جعلتْ أختَنا سكينة قاره
فازجري هذه السنانير عنها　　واتركيها وما تضم الغراره

وقال آخر منهم:

تبارك الله كاشف المحن فقد أرانا عجائب الزمن
حمار شيبان، شيخ بلدتنا، صيره جارنا أبو السكن
بدل من مشية بحلته مشيته في الحزام والرسن[٦٣]

ويصور لهم الرأي الفاسد مشبهات فيسلكون في الترهات.

مذهب التناسخ في الهند

وحكي عن بعض ملوك الهند، وكان شابًّا حسنًا، أنه جدر، فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير، فأحرق نفسه، وقال: «أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه».

وحدثني قوم من الفقهاء، ما هم في الحكاية بكاذبين، إنهم كانوا في بلاد محمود، وكان معه جماعة من الهند، قد وثق بصفائهم، يفيض عليهم الأعطية لوفائهم، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حل أو ارتحل، وأن رجلًا منهم سافر في جيش جهزه، فجاء خبره أنه قد هلك، فجمعت امرأته لها حطبًا كثيرًا، وأوقدت نارًا عظيمة، واقتحمتها، والناس ينظرون، وكان ذلك الخبر باطلًا، فلما قدم الزوج، أوقد له نارًا عظيمة ليحرق نفسه، حتى يلحق بصاحبته، فاجتمع خلق كثير للنظر إليه، وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم[٦٤] هذا إلى أبيه، وهذا إلى أخيه، وجاءه إنسان منهم بوردة وقال: «أعط هذه فلانًا» يعني ميتًا له، وقذف نفسه في النار.

وحدث من شاهد إحراقهم نفوسهم، أنهم إذا لدغتهم النار أرادوا الخروج، فيدفعهم من حضر إليها بالعصي والخشب، فلا إله إلا الله؛ لقد جئتم شيئًا إدًّا.

ابن هانئ الأندلسي

وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية،[٦٥] وكان لهم في المغرب رجل يُعرف بابن هانئ، وكان من شعرائهم المجيدين، فكان يغلو في مدح المعز غلوًّا عظيمًا، حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقادة:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح

عودة إلى الحلاج

وأدل رُتب الحلاج أن يكون شعوذيًّا لا ثاقب الفهم، على أن الصوفية تعظمه منهم طائفة، ما هي لأمره شايفة.

ابن أبي عون

وأما ابن أبي عون، فإنه أخذ في لون بعد لون، وقد تجد الرجل حاذقًا في الصناعة، بليغًا في النظر والحجة، فإذا رجع إلى الديانة ألفي كأنه غير مقتاد، وإنما يتبع ما يعتاد، والتأله موجود في الغرائز، ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه، فيلبث معه، والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه، كنقل الخبر عن المخبر لا يميزون المصدق من المكذب، فلو أن بعضهم ألفى أسرة من المجوس لخرج مجوسيًّا،[٦٦] وإذا جعل المعقول هاديًا، نقع بريه صاديًا، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل؟[٦٧] هيهات! عُدم ذلك في من تطلع عليه الشمس، ومن ضمنه في الرمم رمس، إلا أن يشذ رجل في الأمم، يخص من فضل بعمم.

وربما لقينا من نظر في كتب الحكماء، فألفيناه يستحسن قبيح الأمور، إن قدر على فظيع ارتكبه، وإن عرف واجبًا نكبه، وإن أُودع وديعة خان، وإن سئل عن شهادة مان، وإن وصف لعليل صفة، فما يحفل أَقَتَلَهُ أم ضاعف عليه الأثقال، بل غرضه فيما يكتسب، ورُب زار بالجهالة على أهل ملة، وعلته الباطنة أدهى علة.

وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.[٦٨] ويحضر المجالس أناس طاغون، كأنهم للرشد باغون، وأولئك علم الله أصحاب البدع والمكر.

كم متظاهر باعتزال، يزعم أن ربه على الذَّرَّة يُخلِّد في النار،[٦٩] بله الدرهم وبله الدينار، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم، وينهمك على العهار والفسق، قد صير الجدل مصيدة؛ ينظم به من الغي قصيدة.[٧٠]

وحدثت عن إمام لهم، يوقر ويتبع؛ أنه كان إذا جلس في الشرب، ودارت عليهم المسكرة، وجاءه القدح؛ شربه، فاستوفاه، وأشهد من حضره على التوبة.

عبد الله بن ميمون القداح

والشيعة يزعمون أن عبد الله بن ميمون القداح، وهو من باهلة، كان من علية أصحاب جعفر بن محمد، وروى عنه شيئًا كثيرًا، ثم ارتد بعد ذلك، فحدثني بعض شيوخهم أنهم يروون عنه ويقولون: «حدثنا عبد الله بن ميمون القداح، قبل أن يرتد.» ويروون له:

هات اسقني الخمرة يا سنبر فليس عندي أنني أنشر
أما ترى الشيعة في فتنة يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغرورًا به برهة ثم بدا لي خبر يستر

وما ينسب إليه:

مشيت إلى جعفر حقبة فألفيته خادعًا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقًا لما ظل مقتولكم يُسحب
ولا غض منكم عتيق، ولا سما عمر فوقكم يخطب

والحلولية قريبة من مذهب التناسخ، وحدثت عن رجل من رؤساء المنجمين[٧١] من أهل حران، أقام في بلدنا زمانًا، فخرج مرة مع قوم يتنزهون، فمر والثور يكرب، فقال لأصحابه: «لا شك في أن هذا الثور رجل كان يعرف بخلف، بحران.» وجعل يصيح به: «يا خلف.» فيتفق أن يخور ذلك الثور، فيقول لأصحابه: «ألا ترون صحة ما خبرتُكم به؟»

وحكي لي عن رجل آخر ممن يقول بالتناسخ أنه قال: رأيت في النوم أبي وهو يقول: «ابني إن روحي قد نُقلت إلى جمل أعور في قطار فلان، وإني قد اشتهيت بطيخة.» فأخذتُ بطيخة، وسألت عن ذلك القطار، فوجدت فيه جملًا أعور، فدنوت منه

بالبطيخة، فأخذها أَخْذَ مُريد مُشْتَهٍ، أفلا يرى مولاي الشيخ إلى ما رمى به هذا البشر من سوء التمييز!

ابن الراوندي

وأما ابن الراوندي،[٧٢] فلم يكن إلى المصلحة بمهدي، وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلًا، وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة: «أف وتف» إنما هتك قميصه، وأبان للمناظر خميصه.

القرآن الكريم

وأجمع ملحد ومهتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز، ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو بالقصيد الموزون ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سَجْع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتَصَدَّع. وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب.

ابن الرومي

وأما ابن الرومي فهو أحد من يقال إن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى الفلسفة، والبغداديون يدعون أنه متشيع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء، ومن أولع بالطيرة،[٧٣] وإنما هي شر مستعجل، وللأنفس أَجَلٌ، وكل ذلك حذر من الموت الذي هو ربق في أعناق الحيوان.

وفي الناس من يظن أن الشيء إذا قيل، جاز أن يقع![٧٤] ولذلك قالت العامة: الإرجاف أول الكون، ويقال إن النبي ﷺ تمثل بهذا البيت ولم يُتْمِمْه:

تفاءل بما تهوى يكن، فلقلما يقال لشيء كان، إلا تحققا

ومهما ذهب إليه اللبيب، فالخير في هذه الدنيا قليل جدًّا[٧٥] والشر يزيد عليه بأجزاء ليست بالمحصاة، وقال علقمة:

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته، لا بد مشئوم

وكان ابن الرومي معروفًا بالتطيُّر، ومن ذا الذي أجرى على التخير، وقد جاءت عن النبي ﷺ أخبار كثيرة، تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن مثل: مُرَّة، وشهاب.

ونحو من حكاية ابن الرومي،[٧٦] ما حكي عن امرأة من العرب أنها قالت للأخرى: «سماني أبي غاضبة، وإنما تلك نار ذات غضى، وتزوجت من بني جمرة رجلًا كان اسمه توربا، وإنما ذلك تراب، فشمتت بي الأتراب، وكان اسم أمه سوارة، فلم تزل تساورني في الخصام».

فقالت الأخرى: «لكن سماني أبي صافية، فصفوت، وزوجني من بني سعد بن بكر، فبكر على السعد، واسم زوجي محاسن، جزى الصالحة، فقد حاسن وما لاسن، واسم أبيه وَقَّاف — رعاه الله — فقد وقف على خيره، واسم أمه راضية، رضيتْ أخلاقي.» وإذا كان الرجل خثا رما،[٧٧] لم يزل أن رأى حمامة فرق من الحمام[٧٨] كما قال الطائي:

هن الحمام، فإن كثرت عيافة[٧٩] من حائهن فإنهن حمام

وإن آنس نعامة فما يأخذها من النعيم، ويجعلها بالهلكة، يقول من الفند[٨٠] أولها نعي. وإن نظر إلى عصفور، قال: عصف من الحوادث بوفور، فهو طول أبده في عناء.

ولهذه الطوية جعل ابن الرومي جعفرا من الجوع والفرار، ولو هدي صرفه إلى النهر الجرار، ولكن إخوان هذه الخليقة لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة.[٨١]

وأراد بعضهم السفر في أول السنة، فقال: «إن سافرت في المحرم، كنت جديرًا أن أُحرم، وإن رحلت في صفر، خشيت على يدي أن تصفر.» فأخَّر سفره إلى شهر ربيع، فلما سافر مرض فلم يحظ بطائل، فقال: «ظننته من ربيع الرياض، فإذا هو من ربع[٨٢] الأمراض».

وأما إعداده الماء المثلوج فتعلة، وما تنقع بالحيل غلة، وتقريبه الخنجر تحرز من جان، فكم تنقض الأقضية ما بني البان، ورب رجل يحتفر له قبرًا بالشام، ثم يجشمه

القدر، فيموت باليمن أو بالهند: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وكما أن النفس جهلت مدفن عظامها، فهي الجاهلة لنظامها، كم ظان أنه يهلك بسيف فهلك بحجر.

والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومي مقيدان، وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدًا، إلا في بيت واحد، يتداوله رواة اللغة، والبيت:

كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون[٨٣] قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس، وما يدري الناجم[٨٤] ولعله بالفكر راجم أفي الجنة حصل ذلك الشيخ أم في السعير.

أبو تمام

وأما أبو تمام،[٨٥] فما أمسك من الدين بزمام، فإن قذف في النار حبيب، فما تغنى المدح ولا التشبيب.

مناحة القصائد

ولو أن القصائد لها علم وتأسف، لأقامت عليه الممدودتان اللتان في أول ديوانه مأتمًا، فناحتا عليه كابنتي لبيد، وقالتا ما زعمه الكلابي في قوله:

وقولا هو الميت الذي لا حريمه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولًا كاملًا فقد اعتذر

وكأني بهما، لو قضي ذلك — لاجتمعت إليهما الممدودات، كما تجتمع نساء من كل أوب، ولو فعلن ذلك لبارتهن البائيات بمأتم أعظم رنينًا، وإذا كان مأتم الممدودات في مئة ممَّن يسعدهن، وجب أن يكون مأتم البائيات في آلاف؛ لأن الباء طريق ركوب، والمد في القصائد سبيل منكوب، وما نظمه على التاء، فإنه لا يعجز عن الإيتاء، وتجيء

التائيتان في حالك اللون، وإن التاء لقليلة في شعر العرب، إلا أنهما تستعينان كلمة كثير:

حبال سلامة أضحت رثاثا فسقيا لها جددًا أو رماثًا

وبأراجيز رؤبة، وما كان نحوها من القوافي المتكلفة، والأشعار المتعسفة، ولهما فيما نظم ابن دريد أعوان.

فأما الداليات والرائيات وما بني على الحروف الذلل، كالميم والعين واللام وما جرى مجراهن، فلو اجتمع كل حيز منهن، لضاق عنهن الصدر والأبراد، وزدن على ما ذكر أنه اجتمع في جنازة أحمد بن حنبل من النساء والرجال.

ويقال إنه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جَمْعٌ أكثر مما اجتمع في موت أحمد، حرز الرجال بألف ألف، والنساء بستمئة ألف، والله العالم بيقين الأشياء.

وإن كان حبيب ضيع صلواته، فإنه لضال، لا يبلغ فيه كيد العداة ما بلغ من إهمال غداة. وإني لأضن بتلك الأوصال، أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال؛ لأنه صاحب طريقة مبتدعة، ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار، ويفض عنها المستغلق من المحار، فليته كالجعدي، أو ليته لحق يزيد بن مهلهل، فقد وفد على النبي ﷺ وطرح عنه ثوب الغبى.

أبو مسلم الخراساني

والعجب لأبي مسلم، حطب لنار أكلته، وقتل في طاعة ولاة قتلته، وليس بأول من دأب لسواه، وأغواه الطمع، وإنما تبع سرابًا في قفر فوجد ذنبه غير المغتفر، عند صاحب الدولة أبي جعفر، وكل ساع للفانية لا بد له من الندم، وما آمن أن تكون الآخرة بأرزاق،[٨٦] على أن السر مغيب، والجاهل وفوق الجاهل من ادعى المعرفة، واللعنة على الكاذبين.

علي بن أبي طالب

أما الذين يدعون في علي[٨٧] — عليه السلام — ما يدعون، فتلك ضلالة قديمة.

دعوى الربوبية

وقد بلغني أن رجلًا بالبصرة يعرف بشاباس، تزعم جماعة كثيرة أنه رب العزة، وتجبى إليه الأموال الجمة، ويُحمل إلى السلطان منها قسمًا وافرًا، ليكون بما طلب ظافرًا، وهو ساقط. وحدثت عن امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك.

رجعة إلى ابن الراوندي

وقد سمعت من يخبر أن لابن الراوندي معاشر تذكر أن اللاهوت سكنه؛ ويخترصون له فضائل، يشهد الخالق وأهل المعقول، أن كذبها غير مصقول؛ وهو في هذا أحد الكفرة، وقد أنشد له منشد:

قسمت بين الورى حظوظهم قسمة سكران بين الغلط
لو قسم الرزق هكذا رجل قلنا له قد جننت فاستعط[٨٨]

ولو تمثل هذان البيتان، كانا في الإصر، يطولان أرمي مصر.[٨٩]

أبو جوف

وقد ظهر في الضيعة المعروفة بالنيرب، رجل يعرف بأبي جوف، كان يدعي النبوة، ويخبر بأخبار مضحكة، وكان له قطن في بيت، فقال إن قطني لا يحترق، وأمر ابنه أن يدني سراجًا إليه، فأخذ في القطن، وصرخت النساء، واجتمعت الجيرة.

وحدثني من شاهد أنه كان يكثر الضحك من غير موجب، ولا عند حادث معجب، فقيل له: «لِمَ تضحك؟» فقال كلامًا معناه: «إن الإنسان ليفرح بهين قليل، فكيف من وصل إلى العطاء الجليل؟!»

وكان بين الجنون، فاتبعه الأغبياء، حتى قتله والي حلب.

عودة إلى علي بن أبي طالب

وبعض الشيعة يحدث أن سليمان الفارسي كان في نفر جاءوا يطلبون علي بن أبي طالب — سلام الله عليه — فلم يجدوه في منزله، فبينا هم كذلك، جاءت بارقة تتبعها راعدة، وإذا عليٌّ قد نزل على أجار البيت في يده سيف مخضوب بالدم.

«فقال: «وقع شجار بين فئتين من الملائكة، فصعدت لأصلح بينهما.

أفلا يرى هذه الأمة كيف افتتنت في الضلالة! وللكذب سورة ليست للصدق!

وأما الذي ذكره من بلوغ السن، فإن الله — سبحانه — خلق مقرًّا وشهدًا، ورغبة في العاجلة وزهدًا، وإذا اللبيب أنعم النظر لم ير الحياة إلا تجذبه إلى الضير، صبح يتبسم وأمساء، كأنهما سيد إضراء، والعمر ثلة، وهما على السارح يغيران، فينفيان السائمة.[٩٠]

الزواج

وقد تحدث بعض طلاب الأدب، أنه ذكر التزويج — يريد الخدمة — فسرني ذلك؛ لأنه دل على إقامته بالوطن، وفي قربه الفرحة، إذ كان الشجرة الوارف ظلالها في الهواجر، الطيب ثمرها، والأرج نسيمها وهو يعرف حكاية الحليل عن العرب، إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، ولكن النصف.[٩١]

ولو نشط لهذه المأربة، لتنافست فيه العجز والمكتهلات، وهل هو إلا كما قال الأول:

يا عز هل لك في شيخ فتي أبدًا   وقد يكون شباب غير فتيان

فليس بأول من تزوج عجوزًا كما قال:

إذا ما أعرض الفتيات عني   فمن لي أن تساعفني عجوز
كأن مجامع اللحيين منها   إذا حسرت عن العرنين كوز

ويروى للحارث بن حلزة، ولم أجده في ديوانه:

وقالوا ما نكحت؟ فقلت خيرًا عجوزًا من عرينة ذات مال
نكحت كبيرة وغرمت مالًا كذاك البيع، مرتخص وغال[٩٢]

وأعوذ بالله مما قاله الآخر:

عجوز لو أن الماء يسقى بكفها لما تركتنا بالمياه نجوز

وما زالت العرب تحمد الحيزبون والشهلة.

زواج النبي بخديجة

وقد تزوج النبي ﷺ خديجة بنت خويلد، وهو شاب، وهي طاعنة في السن، وقالت له أم سلمة ابنة أبي أمية: يا رسول الله، إني امرأة قد كبرت وما أطيق الغيرة. فقال: أما قولك قد كبرت، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فإني سوف أدعو الله أن يزيلها عنك.

حاجة الشيخ إلى الزواج

ولا شك أنه قد استخدم في مصر أصناف جوار، ولولا أن أخا الكبرة يفتقر إلى معين، لكانت الحزامة أن يقتنع بورد المعين، فهو يعرف قول القائل:

ما العيش إلا القفل والمفتاح وغرفة تخرقها الرياح
لا صخب فيها ولا صياح

التوبة

وأما إشفاق الشيخ، فتلك سجية الأنيس؛ لا يختص بها أخو الجبن عن الشجاع، ومن القسوط تعرض بالقنوط: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾.

كم من أديب شرب وطرب ثم تاب، فقد يضل الدليل في ضوء القمر، ثم يهديه الله، وكم استنقذ من اللج غريق فسلم.

الفضيل بن عياض

وقد كان الفضيل بن عياض، يسيم في أوبل رياض، ثم حُسب في الزهاد، وجُعل من أهل الاجتهاد، ورب خليع وهو فتى، تصدر لما كبر وأفتى، ومغن بطنبور أو عود، قدر له تولي السعود، فرقى منبرًا للعظات.

عمر بن عبد العزيز

ولعله قد نظر في طبقات المغنين، فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس؛ هكذا ذكر ابن خرداذبه، فإن يك كاذبًا فعليه كذبه.

أبو حذيفة وحماد عجرد

والحكاية معروفة، أن أبا حذيفة[٩٣] كان يشارب حماد عجرد وينادمه، فنسك أبو حذيفة، وأقام حماد في الغي، فبلغه أن أبا حذيفة يذمه ويعيبه، فكتب إليه حماد:

إن كان نسكك لا يتمـ ـمُ بغير شتمي وانتقاصي
فاقعد وقم بي كيف شئـ ـت مع الأداني والأقاصي
فلطالما ركيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام تعطيني وتأ خذ في أباريق الرصاص

عمر بن الخطاب

أليس الصحابة — عليهم رضوان الله — كلهم كان على ضلال، ثم تداركهم المقتدِر ذو الجلال؟

وفي بعض الروايات، أن عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجمعًا كانوا يجتمعون فيه للقمار، فلم يجد فيه أحدًا، فقال: لأذهبن إلى الخمار لعلي أجد عنده خمرًا، فلم يجد عنده شيئًا، فقال: لأذهبن ولأُسْلِمن، والتوفيق يجيء من الله سبحانه.

عودة إلى النبي

وفيما خُوطب به النبي ﷺ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾.

وذكر أبو معشر المدني، في كتاب المبعث، حديثًا معناه: أن النبي ﷺ ذبح ذبيحة للأصنام، فأخذ شيئًا منها، فطبخ له، وحمله زيد بن حارثة، ومضيَا ليأكلاه في بعض الشعاب، فلقيهما زيد بن عمرو بن نفيل، وكان من المتألهين في الجاهلية، فدعاه النبي ﷺ ليأكل من الطعام، فسأله عنه، فقال: «هو شيء ذبحناه لآلهتنا.» فقال زيد بن عمرو: «إني لا آكل من شيء ذُبح للأصنام، وإني على دين إبراهيم — صلى الله عليه وسلم.» فأمر النبي زيد بن حارثة بإلقاء ما معه.

تميم بن أوس الداري

وفي حديث آخر، وقد سمعته بإسناد، أن تميم بن أوس الداري[٩٤] كان يهدي إلى النبي، في كل سنة، راوية من خمر، فجاء في بعض السنين، وقد حرمت الخمر، فأراقها.

أحمد بن حنبل

وقد ذكر عند ثعلب، أحمد بن حنبل، إن كان شرب النبيذ قط، والنبيذ — عند الفقهاء — غير الخمر، فقال ثعلب: «أنا سقيته بيدي».

الخمر

وإنما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر، ولولا ذلك، لكان غيرها من الأشربة أعذب وأدفأ،[٩٥] وإن كان الشيخ قد شرب فله أسوة بشيخ الأزد، محمد بن الحسن، إذ قال:

بل رب ليل جمعت قطريه لي　　　بنت ثمانين عروس تجتلى

ثم قال في آخر القصيدة:[٩٦]

فإن أمت فقد تناهت لذتي وكل شيء بلغ الحد انتهى

وما أختار له أن يأخذ بقول الحكمي:

قالوا: كبرت، فقلت: ما كبرت يدي عن أن تشير إلى فمي بالكاس[٩٧]

وقد آن لمولاي الشيخ أن يزهد في شيعة حميد الأمجي، قائل هذه الأبيات:

شربت المدام فلم أقلع وعوتبت فيها، فلم أرجع
حميد الذي أمج داره أخو الخمر، ذو الشيبة الأصلع
علاه المشيب على حبها وكان كريمًا فلم ينزع

وقال آخر:

تعاتبني في الراح أم كبيرة وما قولها — فيما أراه — مصيب
تقول: «ألا تجفو المدام، فعندنا من الرزق تمر مكثب وزبيب؟»
فقلت: «رويدًا ما الزبيب مفرحي وليس لتمر في العظام دبيب
فإن حميدًا علها في شبابه ولم يصح منها حين لاح مشيب»

توبة ابن القارح

وإذا تسامعت المحافل بتوبته، اجتمع عليه الشبان المقتبلون، والأدباء المكتهلون، وكل أشيب، فيقتبسون من آدابه، ويصغون المسامع لخطابه. وجلس لهم في بعض المساجد بحلب — حرسها الله — فإنها من بعد أبي عبد الله بن خالويه عطلت من الأدب.

عودة إلى الحور

وإذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة، فلعل جواريه المعدات له في الخلد، يسألن عن أخبار من يرد عليهن من الصلحاء، فيسمعن مرة أنه بالفسطاط، ومرة أنه بالبصرة، ومرة أنه ببغداد، وخطرة أنه بحلب، فإذا شاع أمر التوبة، ومات ناسك من أهل حلب، أخبرهن بذلك فسررن وابتهجن، وهنأهن جاراتهن.

ولا ريب أنه قد سمع حكاية البيتين التاليين، في كتب الاعتبار:

أنعم الله بالخيالين عينا وبمسراك يا أميم إلينا
عجبًا! ما جزعت من وحشة اللحـ ـد ومن ظلمة القبور علينا

رجعة إلى الخمر

أعوذ بالله من قوم يحثهم المشيب على أن يستكثروا من أم زنبق،[٩٨] قال حاتم:

وقد علم الأقوام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر
يفك به العاني ويؤكل طيبًا وليست تعريه القداح ولا اليسر
أماوي أن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
ترى أن ما أهلكت لم يك ضرني وأن يدي مما بخلت به صفر

وقال طرفة:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وقال ابن المعتز:

لا تطل بالكؤوس مطلي وحبي ليس يومي يا صاحبي مثل أمسي

لا تسلني واسأل مشيبي عني   مذ عرفت الخمسين أنكرت نفسي

فهذا حثته كثرة سنيه على أن يستكثر من السلافة، وما حفظ حق الخلافة، وأنا أضن به أن يكون كأبي عثمان المازني، عوتب في الشراب فقال: «إذا صار أكبر ذنوبي تركته!»

المعتصم وإبراهيم المهدي

وقد روي أن المعتصم دعا إبراهيم كعادته، فغناه وبكى، فقال له المعتصم: ما يبكيك؟ فقال: كنت عاهدت الله إذا بلغت ستين سنة أن أتوب، وقد بلغتها، فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور الشراب.

الهيام بالخمر

وكان في بلدنا رجل مُغرَم بالقهوة[٩٩] فلما كبر رغب في المطبوخ وكان يحضر مع ندماه، وعندهم قدح واحد، فيشرب هو من المطبوخ ويشرب أصحابه من النيئ، فإذا جاء القدح إليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه، فإذا فرغ المطبوخ، رجع فشرب من شراب إخوانه.

وأما مخاطبته غيره، وهو يعني نفسه، فهو كقولهم في المثل: «إياك أعني واسمعي يا جارة.» ولا عنده عن الجبلة، يريد المتنسك، أن ينصرف حبه عن العاجلة، وليس يقدر على ذلك كما لا تقدر الظبية أن تصير لبؤة ولا الحصاة أن تُتصور لؤلؤة:[١٠٠] ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

وقول القائل:

لقد علمت، وما أنهاك عن خلق   ألا يكون امرؤ إلا كما خلقا[١٠١]

وكثير من الذين يتلون الآية: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وهم بها مصدقون، ومن خشية إلههم مشفقون، يضنون بالقليل التافه ولا يسمحون للسائل،[١٠٢] فكيف تكون حال من ينكر حديث الجزاء، ولا يقبل عن الفانية حسن العزاء.

أبو طلحة واليهودي

وقد مر حديث أبي طلحة، أو أبي قتادة، ومعناه: أنه خاصم يهوديًّا إلى النبي ﷺ وكان لأبي طلحة حديقة نخل، وبينه وبين اليهودي خلف في نخله واحدة، فقال النبي ﷺ لليهودي: أتسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلة في الجنة، ونعتها رسول الله ﷺ بنعوت أشجار الجنة. فقال اليهودي: لا أبيع عاجلًا بآجل. فقال أبو طلحة: أتضمن لي يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعطيه الحديقة؟ فقال: «نعم.» فرضي أبو طلحة بذلك وأخذ اليهودي وذهب إلى حديقته، فوجد فيها امرأته وأبناءه، وهم يأكلون من جناها، فجعل يُدخل أصبعه في أفواههم فيُخرج ما فيها من التمر، فقالت امرأته: «لِمَ تفعل هذا ببنِيك؟!» فقال: إني قد بعت الحديقة. فقالت: «إن كنت بعتها بعاجل فبئس ما فعلت!» فقص عليها الخبر، ففرحت بذلك.

ولو قيل لبعض عباد هذا العصر: «أعط لبنة لتُعطى في الآخرة لبنة من فضة.» لما أجاب، ولو سئل أَمَةً عوراء يُعوض منها في الآخرة بحوراء لَمَا فَعَل، على أنه من المصدقين، فكيف من غذي بالتكذيب وجحد وقوع التعذيب؟

أبو هذيل العلاف

ويحكى عن أبي الهذيل العلاف، أنه كان يمر في الأسواق على حمار ويقول: «يا قوم، احذروا توبة غلامي.» وكان له غلام يَعِدُ نفسه التوبة، فسقطت عليه آجرة فقتلته.

بدء التعارف بين المعري وابن القارح

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ، من رجل واسطي، يتعرض لعلم العروض، ذكر أنه شاهده بنصيبين وفيها رجل يُعرف بأبي الحسين البصري معلمًا لبعض العلوية. وكان غلام يختلف إليه يعرف بابن الدان، وقد اجتاز الشيخ ببلدنا، والواسطي يومئذ فيه، وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام — رحمه الله — كتبًا عليها سماح لرجل من أهل حلب، وما أشك أنه الشيخ، وهو لا يفتقر إلى تعريف بالقريض، كما قال الطائي:

تحميه لألاؤه أو لوذعيته ... من أن يذال بمن، أو ممن الرجل

حجج ابن القارح

وأما حججه الخمس فهو — إن شاء الله — يستغني في المحشر بالأولى منهن، وينظر في المتأخرين من أهل العلم، فلا ريب أنه يجد فيهم من لم يحجج، فيتصدق عليهم بالأربع. وكأني به، وعماعم الحجيج يرفعون التلبية، وهو يفكر في تلبيات العرب، وأنها جاءت على ثلاثة أنواع: مسجوع لا وزن له، ومنهوك، ومشطور.

وكأني به لما اعتزم على استلام الركن، وقد ذكر قول القائل:

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة، والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام به لله أخلصت القلوب:
«أتوب إليك يا رباه مما جنيت فقد تظاهرت الذنوب
فأما من هوى ليلي وحبي زيارتها، فإني لا أتوب»

ولعله قد ذكر هذه الأبيات في الطواف:

أطوف بالبيت فيمن يطوف وأرفع مئزري المسبل
وأسجد بالليل حتى الصبا ح وأتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الكرب عن يوسف يسخر لي ربة المحمل

وذكر عند تفرق الناس هذين البيتين:

ودِّعى القلب يا قريب، وجودي لمحب فراقه قد أحما
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزما

وكأني به وقد مر بأنطاكية، فذكر قول امرئ القيس:

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نحل، أو كجنة يثرب

أبو الطيب اللغوي

وأما أبو الطيب اللغوي، واسمه عبد الواحد بن علي، فلا أشك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته؛ لأن الروم قتلوه وأباه، في فتح حلب. وكان ابن خالويه يلقبه: دحروجة الجبل؛ لأنه كان قصيرًا. وقد كان أبو الطيب يتعاطى شيئًا من النظم، وقد علم الله أنني لا في العير ولا في النفير، كلما رغبت في الخمول قدر لي غير المأمول. كان حق الشيخ إذ أقام في معرة النعمان سنة، أن لا يسمع لي بذكر، ولا أخطر له على فكر، والآن قد غمر أفضاله، وأظلني أدبه، وهو كريم الطبع، والكريم يخدع، ومن سمع جاز أن يخال.

ابن القارح في مصر

وأما ما ذكره من ميله في مصر إلى بعض اللذات، فهو يعرف الحديث: أريحوا القلوب تَعِ الذِّكرَ. وقال أحيحة بن الجلاح:

صحوت عن الصبا، واللهو غول ونفس المرء آونة ملول

وقد عاشر ملوكًا ووزراء، وقد سمع أنباء النعمان الأكبر؛ إذ فارق ملكه، وتعوض من الحرير المسوح، وإياه عنى العبادي في قوله:

وتذكر رب الخورنق إذ فكـ ـر يومًا، وللهدى تفكير
سره ملكه وكثرة ما يمـ ـلك، والبحر معرضًا، والسدير
فارعوى جهله، فقال: «وما غبـ ـطة حي إلى الممات يصير؟»

الهنود والخمر

والسكر محرم في كل الملل، ويقال إن الهند لا يملكون عليهم رجلًا يشرب مسكرًا؛ لأنهم يرونه منكرًا. ويقولون: «يجوز أن يحدث في المملكة نبأ والملك سكران.» لعنت القهوة!

وينبغي أن يزهده في الصهباء أن ندماه الأكرمين أصبحوا في الأجداث العافية، كم جلس مع فتيان أتى عليهم الزمن، فكان كما قال الجعدي:

تذكرت والذكرى تهيج لي الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماي عند المنذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفرا

وهو يعرف الأبيات التي أولها:

خليلي هبا، طالما ما قد رقدتما أجدكما لا تقضيان كراكما

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر:

أما الطلاء فإني لست ذائقها حتى ألاقي بعد الموت جبارا

دنانير ابن القارح

وسرتني فيئة[١٠٣] الدنانير الية، فتلك أعوان، ولها على الناس حقوق، تبر إن خيف عقوق. قال عمرو بن العاص لمعاوية: «رأيت في النوم أن القيامة قد قامت وجيء بك وقد ألجمك العرق!» فقال معاوية: «هل رأيت ثَمَّ من دنانير مصر شيئًا؟»

وهذه لا ريب من دنانير مصر، لم تجئ من عند السوق، ولكن من عند الملوك، فالحمد لله الذي سلمها إلى هذا الوقت، ولم تكن كذهب صار إلى الخمارة، كما قال:

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها شائلًا
وزنا لها ذهبًا جامدًا فكالت لنا ذهبًا سائلًا

وهي عند البله والكيس، أجود من الخاتم ذكره بن قيس، فقال:

إن ختمت حاز طين خاتمها كما تجوز العبدية العتق

أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال إنه أول من ضرب الدنانير في الإسلام.

ودنانيره بإذن الله مقدسات، وإن كانت زائدة على الثمانين، فقد أوفت على عدة أصحاب موسى الذين جاء فيهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾، وعلى عدة الاستغفار في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، وعلى عدة أذرع في السلسلة في قوله تعالى: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

ولو كانت سنو زهير مثلها لما وصف نفسه بالسآمة، ولو أدركه عروة بن حزام وهو يقول:

يكلفني عمي ثمانين ناقة وما لي يا عفراء غير ثمان

لجاز أن يرق له فيغيثه من هذه الثمانين ببعضها، أو يسمح له بكلها؛ لأنه كريم طبع. ولو صارت في يد عروة هذه الثمانون، لبلغ بها الأمنية؛ لأن الناقة في ذلك الزمان كانت ربما اشتُريت بعشرة دراهم. وفي بعض أخبار الفرزدق، أن رجلًا من ملوك بني أمية أعطاه مئة من إبل الصدقة، فباعها بألف وخمسمئة درهم بعد ما عني به وزيد في الثمن.

الجَمل في زمن المنصور

وقد مرت به الحكاية التي يذكرها أصحاب التاريخ، أن الجَمل كان يباع في زمن أبي جعفر المنصور بدرهم، وأنه صادر قومًا من أصحابه وكانت لهم نعاج، فباعوها ثماني نعاج بدرهم؛ هذا ما وجد بخط المرزباني في تاريخ ابن شجرة.

فضل الذهب

وهي أنضر من الثمانين التي ذكرها العلوي البصري في قوله:

عبرت إليهم في ثمانين فارسًا فأدركت منهم بغيتي ومراديا

لله در الذهب من خليل؛ فإنه يفيء بظل ظليل، ما هو كغيره بال، والدر إذا كسر ذهبت قيمته، ورب ذهب في سوار، جعل في خلخال ثم نقل إلى جام أو كاس، وهو بحسنه ما تغير لبشار النيران.

أبو بكر الشبلي

وأما أبو بكر الشبلي — رحمه الله — فلا ريب أنه من أهل الفضل، وأرجو أن يكون سالمًا من مذهب الحلولية، وأنشدني له منشد:

باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى ففزت بوجدي
وإذا كان في القيامة نودي أين أهل الهوى؟ تقدمت وحدي

فإن صح أن هذين البيتين له فلا يمتنع أن يعترض عليه قائل، فيقول: إن ادعاءه الانفراد من العالم، لا يسلمه إليه البشر؛ إن كان هواه للمخلوقين أو الخالق فله في الأمم نظراء كثير.

ختام الرسالة

وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل، من تأخير الإجابة؛ فإن عوائق الزمن منعت من إملاء السوداء، وأنا مستطيع بغيري، فإذا غاب الكاتب فلا إملاء، ولا ينكر الإطالة علي؛ فإن الخالص من النضار طالما اشترى بأضعافه في الزنة من اللجين، فكيف إذا كان الثمن من النفيات،[١٠٤] اللائي يوجَدن في الطرق مرميات؟

وعلى حضرته الجليلة سلام، يتبع قرومه[١٠٥] إفاله،[١٠٦] وتلحق بعوذه[١٠٧] أطفاله.

هوامش

(١) أي في افتنان، وقد امتلأ شعر أبي العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه، ومن أدق ما قاله في ذلك قوله في لزومياته:

مين يردد، لم يرضوا ببطاله حتى أبانوا إلى تصديقه طرقا

(٢) ارتاح له وخف إليه.
(٣) ناش أو شاب.
(٤) كذب وتقوَّل الأباطيل.
(٥) جمع عتروف أو عتريف، وهو الخبيث الفاجر الجريء.

(٦) الجوزل: فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه، قيل: وبعد أن ينبت ريشه أيضًا.

(٧) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في لزومياته، فمن ذلك قوله عن الظبي:

عجبت للظبي بانت عنه صاحبة لاقت جنود منايا لا تناخيها
فارتاع يومًا، ويومًا، ثم ثالثه ومال بعد إلى أخرى يواخيها
ما شد صرف زمان عقدة لأذى إلا ومر لياليه يراخيها

(٨) أشار أبو العلاء إلى هذا المعنى في كتابه سقط الزند في قوله:

أبنات الهديل أسعدن أوعد ن قليل العزاء بالأسعاد
إيه لله دركن فأنتن اللوا تي تحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالكًا في الأوان الـ ـخال أودى من قبل هلك إياد

(٩) الوثن الصنم، ومما نختاره من لزومياته في هذا المعنى قوله:

وبالجد زار اللات أهل ضلالة وعظمت العزى، وأكرم باجر

وهي أسماء أصنام ثلاثة: أولهما لثقيف وكان بالطائف، وثانيهما لقريش وكنانة، وثالثهما لقضاعة ومن والاهم.

(١٠) تبرأ أبو العلاء في مواضع كثيرة من لزومياته، من مظنة العلم، ومن أحسن ما نختاره له في هذا المعنى قوله:

أقررت بالجهل، وادعى فهمي قوم، فأمري وأمرهم عجب
والحق، أني وأنهم هدر لست نجيبًا، ولا هم نجب

وقوله:

الله يشهد أني جاهل ورع فليحضر الناس إقراري وإشهادي

ورع، أي جبان.

(١١) السدين هو الستر.
(١٢) من أحسن ما نختاره لأبي العلاء في هذا المعنى قوله:

ما يحس التراب ثقلًا إذا ديـ ـس ولا الماء يتعب الجريان

وقوله:

أما الجماد فإني بت أغبطه إذ ليس يعلم إما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنار التي أخذت فيه، ولا الأصهب الداري إذا سحقا

وقوله:

عز الذي أعفى الجماد فما ترى حجرًا يغص بمأكل أو يشرق
متعريًا في صيفه وشتائه ما ريع قط لملبس يتخرق
لا حس يؤلمه، فيظهر مجزعًا إن راح يضرب ملطس أو مطرق

إلى أن يقول:

والصخر يلبث لا يقارف مرة ذنبًا، ولا هو من حياء مطرق

ولعل هذه الميزة التي ذكرها للجماد في هذا البيت الأخير، هي التي جعلته يقول:

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

(١٣) مما نختاره لأبي العلاء في هذا المعنى قوله في لزومياته:

وأزهد في مدح الفتى عند صدقه فكيف قبولي كاذبات المدائح

وقوله:

إذا كان التقاوض من محال فأحسن من مدائحنا التهاجي

(١٤) العلهب الظبي.

(١٥) الكناس بيت الظبي في الشجر يستتر فيه، وإيثار أبي العلاء العزلة معروف بل هو من ألزم صفاته، وحسبك دليلًا على ذلك، ما لقب به نفسه من أن رهن المحبسين. والإفاضة في الاستشهاد بما قاله في الترغيب في العزلة، والحث عليها، إطالة لا فائدة فيها، فلنكتف من ذلك بقوله في فصلها:

بعدي عن الناس خير من لقائهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد، لا إيطاء يدخله ولا سناد، ولا في اللفظ إقواء

وقوله متضجرًا من التكاليف الثقيلة التي يحتمها عليه الاختلاط بالناس:

لقاء الناس ألجأني برغمي إلى حسن التجمل والنفاق

ونحب أن لا يفوت القاري جمال هذا البيت الرائع، وهو قوله:

متى ما يأتني أجلي بأرضي فحي على الجنازة للغريب

(١٦) الرعدة أو الاضطراب والقلق والخفة والهلع.

(١٧) الضياع.

(١٨) تملأ.

(١٩) أبدع أبو العلاء في صوغ هذا المعنى في قوله:

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية، لاعتراها القوم أفوجا
وكان من ألقت الدنيا إليه أذى يؤمها تاركًا للعيش أمواجا

(٢٠) الأبلمة بقلة، وشق الأبلمة أي نصفها.

(٢١) هو أبو نواس وقد سبق ذكره.

(٢٢) تختلها.

(٢٣) هذان البيتان من قصيدة أبي نواس السينية الرائعة التي أولها:

ودار ندامى عطلوها، وأدلجوا   بها أثر منهم، جديد ودارس

ويليهما قوله:

فللخمر ما زرت عليه جيوبها   وللماء ما دارت عليه القلانس

(٢٤) شدة حبه.
(٢٥) التينة.
(٢٦)

رأي أبي العلاء في الموت

هذه هي أكبرة ميزة للموت، عند أبي العلاء، وهي التي حببته فيه، وربما كان أول ما يسترعي انتباهتك في شعره، تشاؤمه، ونظرته إلى العالم بمنظار شديد السواد، ومن ثَمَّ سخطه على الدنيا، وتبرمه بالحياة، التي دفعته إليها المقادير برغمه، فلاقى فيها من صنوف الأذى والعذاب، ما كان يكفي بعضه، لتبغيضه فيها، ونقمته عليها، حتى أصبح لا يرى فيها إلا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات، تبدأ، لا بولادة الطفل، كما زعم ابن الرومي في قوله:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها، وإنها   لأوسع مما كان فيه وأرغد

بل منذ كان جنينًا في بطن أمه …

وما برح الإنسان في البؤس مذ جرت   به الروح، لا مازال عن رأسه الغرس

ثم لا تنتهي تلك الآلام إلا بموته — وفي هذه الخاتمة شك كبير عند أبي العلاء، كما سنبينه، فلا غرو إذا خص الدنيا، بأوفر قسط من الذم، وأنتن في تقبيحها حتى لقبها بأم دفر — أي أم نتن — في أكثر مخاطباته إياها، وقد جعله مزاجه السوداوي

يرى الحياة مأساة مفجعة فيها كل موضع صالح للحسرة والبكاء، وليس فيها موضع واحد يصلح للسرور. وفي ذلك يقول أشعارًا كثيرة، نجتزئ منها بقوله:

أعن باكيًا لج في حزنه وسل ضاحك القوم مم ابتهج

وقوله:

يسمى سرورًا جاهل متخرص بغية البرى هل في الزمان سرور؟

وقد أكثر أبو العلاء من التفكير في مسألة الموت، فلا تكاد تخلو من ذكره صفحة من لزومياته، حتى لأصبح من أوليات المسائل التي يدور عليها محور فلسفته، ولا نعرف له شبيهًا في هذه الخلة، سوى أبي العتاهية الذي نعده مقصرًا — رغم إكثاره — عن شأو أبي العلاء تقصيرًا بينًا. والفرق بين الرجلين في نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزَّهِد، والواعظ الذي اتخذ الوعظ ديدنًا له.

ويمكن الإلمام بآراء أبي العلاء في الموت، رغم تناقضها مع الإشارة إلى سبب ذلك فيما يلي:

(١) فتارة كان يصل جزعه من الموت إلى أقصاه، ويرتاع منه، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه، فيقول:

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

ثم يصرخ من أعماق نفسه، وقد تولاه الذهول:

أنبأنا اللب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ

أو يقول:

فويها رواها السيل المنون كم جر عيرًا بأحمالها

أو تنبهه فكرة طارئة، تنتابه فجأة، فيهب مذعورًا خائفًا، فيقول:

بكر الحول بعد الحول عني　　وتلك مصارع الأقوام حولي
كأني بالألى حفروا لحاري　　وقد أخذوا المعاول وانتحوا لي

وفي البيت الثاني صورة مفزعة تمثل ما ألمَّ به من الهلع والرعب!

(٢) وحينا يذكر الموت فيتمناه، ولكنه يخشى ألا تكون فيه الراحة والطمأنينة اللتين أخطأهما في الحياة، فيتردد في تمنيه ويقول:

إن كان نقلي عن الدنيا يكون إلى　　خير، وأرحب، فانقلني على عجل
وإن علمت مآلي عند آخرتي　　شرًّا وأضيق، فانسأ رب في الأجل

وتزداد به الحيرة والارتباك، فيقول:

فإن خرجت إلى بؤس فواحربي　　وإن نقلت إلى نعمي فطوبى لي

وربما خشي أن يسلبه حسه الذي يعتز به، ويتضاءل بالقياس إليه كل اعتبار آخر، حتى إنه حرم على نفسه الخمر ضنًّا أن تذهب به سورتها — كما سنبينه في حينه — فيقول:

ولو كان يبقى الحس في فم ميت　　لآليت أن الموت في الفم أعذب

وفي هذه الحالة ترى حنينه إلى الموت مقرونًا بشيء من الجزع والرهبة منه، على أنها نوبات فجائية، تعرض له، فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه.

(٣) فأما يقينه الذي لا يفتأ يردده، ويتغنى به في أكثر أحايينه، فهو النزوع إلى تفضيل الموت؛ لأنه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها. وإليك نخبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعًا بإيمانه الثابت، بما ذكره في رسالته هنا عن الرمس، من أنه يغني الثاوي به بعد عدم ويكفيه المؤونة:

ما أعدل الموت من آت وأستره　　فهيجيني، فإني غير مهتاج
العيش أفقر منا، كل ذات غنى　　والموت أغنى بحق كل محتاج

إذا حياة علينا للأذى فتحت بابًا من الشر، لاقاه بإرتاج

* * *

يغني الفتى بالمنايا عن مآربه وتنقح الروح في طفل فيفتقر

* * *

كأس المنية أولى بي، وأروح لي من أن أكابد إثراء وأحواجا

* * *

لكون خلك في رمس أعز له من أن يكون مليكًا عاقد التاج
الملك يحتاج ألافًا تناصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج
كشفي رأسي وافتقاري بها خير من التمليك والتاج

* * *

أن يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يفوض إلي

* * *

متى ألق من بعد المنية أسرتي أخبرهم أني خلصت من الأسر

* * *

ومن اليمن للفتى أن يجيء الـ ـموت يسعى إليه سميًا سريحا
لم يمارس من السقام طويلًا ومضى لم يكابد التبريحا

* * *

رقدة الموت ضجمة يستريح الجـ ـسم فيها فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجـ ـب إلا من راغب في ازدياد

* * *

تدعو بطول العمر أفواهنا   لمن تناهى القلب في وده
يسر إن مد بقاء له   وكل ما يكره في مده

* * *

دعا لي بالحياة، أخو وداد   رويدك إنما تدعو عليا
وما كان البقاء لي اختيارًا   لو أن الأمر مردود إليا

* * *

آليت لا ينفك جسمي في أذى   حتى يعود إلى قديم العنصر

* * *

على البلى سيفيد المرء فائدة   فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا

* * *

طال وقوفي وراء جسر   وإنما ينظر العبور

* * *

عشنا وحسر الموت قدامنا   فشمر الآن لكي نعبره

* * *

أقمت برغمي وما طائري   براض إذا ألفته الوكون

* * *

لعل الموت خير للبرايا   وإن خافوا الردى وتهيبوه

* * *

تعود إلى الأرض أجسامنا   وتلحق بالعنصر الطاهر

ويقضي بنا فرضه ناسك   يمر اليدين على الظاهر

* * *

لعل موتًا يريح الجسم من نصب   إن العناء بهذا العيش مقترن

* * *

متى غدوت ببطن الأرض مضطجعًا   فثم أفقد أوصابي وأمراضي

* * *

فمالي أخاف طريق الردى   وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة   ومآل أضيع، ومال ملك

* * *

هنيئًا لطفل أزمع السير عنهم   فودع من قبل التعارف ظاعنًا

* * *

ومسكن الروح في الجثمان أسقمه   وبينها عنه من سقم يعافيه
وما يحس إذا ما عاد متصلًا   بالترب تسقيه في الهابي سواقيه
وحبذا الأرض قفرًا لا يحل بها   ضد تعاديه، أو خلم تصافيه

الهابي: تراب القبر.

روح إذا اتصلت بجسم لم يزل   هو وحي في مرض العناء المكمد
إن كنت من ريح فيا ريح اسكني   أو كنت من نار، فيا نار اخمدي

* * *

بطن البسيطة أعفى من ظواهرها   فوسعا لي، اهرب من سعاليها

* * *

أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس — فيما أعلم — الكفن

ونختم هذا المختار بتلك المشاجرة الجميلة التي حدثت بينه وبين الدنيا، وأحسن تمثيلها في البيتين التاليين:

أف لدنياي فإني بها لم أخل من إثم ومن حوب
قلت لها امضي غير مصحوبة فقالت اذهب غير مصحوب

(٢٧) البرة: الخلخال.
(٢٨) أي الذي غلا في مدحي.
(٢٩) أشار أبو العلاء إلى ذلك في موضعين من لزومياته، أولهما قوله:

وقد شهد النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا وقد جعلوه ربا لئلا ينقصوه ويجدبوه

والثاني قوله:

عجبًا للمسيح بين أناس وإلى الله والد نسبوه
أسلمته، إلى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفـ ـل إذا ما لداته ضربوه
وإذا كان ما يقولون في عيسـ ـى صحيحًا فأين كان أبوه؟
كيف خلى وليده للأعادي؟ أم يظنون أنهم غلبوه؟

(٣٠) عجُز البيت هو: «ما هكذا تورد يا سعد الإبل».
(٣١) الناشد: الطالب، وهو هنا الضال الذي ينشد السبيل.
(٣٢) الشن: القربة الخلق الصغيرة.
(٣٣) الثعلب.
(٣٤) متعبدًا أو متنسكًا أو مؤمنًا بالله.

(٣٥)

أمسى النفاق دروعًا يستجن بها   من الأذى؛ ويقوي سردها الحلف

(٣٦) شنع أبو العلاء في كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التي تتخذ الدين دائمًا وسيلة لنيل أعراض الدنيا، ونجتزئ من ذلك بقوله:

إذا كشفت عن الرهبان حالهم   فكلهم يتوخى التبر والورقا
مذاهب جعلوها من معائشهم   من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

وقوله:

وإنما حمل التوراة قارئها   كسب الفوائد لا حب التلاوات

وقوله:

كذب لا يزال يطعم خبزًا   نص عن آدم وعن قابيل
يمتريه جذلان مهتبل الفـ   ـرة يبدي حزنًا على هابيل

(٣٧) سيدًا عظيمًا.
(٣٨) يعني به النبي ﷺ.
(٣٩) موتى أو أجساد ميتة.
(٤٠) التي تلين بعد استصعاب.
(٤١) **الدهر:** أشعار أبي العلاء في الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته، فلنجتزئ بالقليل منها عن الكثير، لإظهار مناحي رأيه المتعددة في الدهر، وإنما نسردها بلا تعليق رغبة في الإيجاز وهي قوله:

إن رابنا الدهر بأفعاله   فكلنا بالدهر مرتاب

وقوله:

إذا قيل غال الدهر شيئًا فإنما يراد إله الدهر والدهر خادم

وقوله:

ولا عقل للدهر فيما أرى فكيف يعاتب أن أذنبا

وقوله:

فلو تكلم دهر كان شاكيهم كما تراهم على الإحسان يشكونه

وقوله:

صحبنا دهرنا دهرًا، وقدما رأى الفضلاء ألا يصحبوه
وغيظ بنوه منه، وغيظ منهم فعذب ساكنيه وعذبوه
ومن عاداته في كل جيل غداة أن يقل مهذبوه
أساء بجهله أدبًا عليهم فهل من حيلة فيؤدبوه
وما يخشى الوعيد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبوه

وقوله:

إن خَرِف الدهر فهو شيخ يُحَقُّ بالهَترِ والزّمانَهْ
أضحى سليمًا بغير داء لم تبد في شخصه ضمانه
أعجم قد بين الرزايا أو جعل الشر ترجمانه

وقوله:

ويا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك

(٤٢) **الزمان:** هذا التعريف هو في اعتقادنا أدق تعريف فلسفي صحيح عرفناه للزمن، وقد ذكره أبو العلاء في لزومياته، فقال:

وأيسر كون تحته كل عالم

واسترسل في فكرته في الشطر الثاني من هذا البيت فبيَّن سرعة الزمان، فقال: «ولا تدرك الأكوان جرد صلادم.» ثم قسم الأزمان في البيتين التاليين من هذه القصيدة إلى ماضٍ اندثر فاستحالت عودته ومستقبل آتٍ سيندثر بعد حين، فقال:

إذا هي مرت لم تعد، ووراءها نظائر، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها، بعد ما غاب، غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأي في سقط الزند فقال:

أمس الذي مر، على قربه يعجز أهل الأرض عن رده

وذكر الشطر الثاني منه في بيته الآخر وهو قوله:

أرى الوقت يفنى أنفسًا بفنائه ويمحو، فما يبقي الحديث ولا الرسم

وهذا الرأي لا يناقض قوله في التدليل على قدم الزمن:

أرى زمنًا تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذي الكمال

وبين أن القادم من الزمان (المستقبل) مجهول لا يعرف إلا بعد مرور الزمن الذي يكشف الغطاء عن أسراره، فقال:

الساع آنية الحوادث، ما حوت لم يبد إلا بعد كشف غطائها

وقد ذكر هذا المعنى «بوب» الشاعر الإنجليزي، بصيغة أخرى، وترجمه الأستاذ العقاد، وهو:

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى   صفحة الحاضر حينًا بعد حين

وكثيرًا ما شبه أبو العلاء الزمان بالطائر، فمن ذلك قوله:

وما الوقت إلا طائرًا يقطع المدى   فبادره إذ كل النهي في بداره

وقوله:

يبغي التشبث بالأوقات جائزها   هيهات ما الوقت إلا طائر طارا

(٤٣) ارجع إلى جزء «١».
(٤٤) أي بدا سرهم الذي كانوا يخفونه.
(٤٥) بيضة النعام خرج منها الفرخ.
(٤٦) ولد النعام.
(٤٧) هو صالح بن عبد القدوس الذي مر ذكره.
(٤٨) كرر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته بطرق شتى، فمن ذلك قوله:

إذا ما ألحدت أمم بجهل   فقابلها بتوحيد السيوف

وقوله:

تمادوا في الضلال ولم يتوبوا   ولو سمعوا صليل السيف تابوا

وقوله:

أبدى العتاهي نسكا   وتاب من ذكر عتبه
والخوف ألزم سفيا   ن أن يغرق كتبه

وأمعن في التهكم والسخرية في قوله:

تلوا باطلًا، وجلوا صارمًا   وقالوا «صدقنا؟» فقلنا «نعم!»

(٤٩) **المزدكية:** هذا الرأي هو رأي جماعة المزدكية، وهم أتباع المذهب المزدكي المنسوب إلى مزدك، وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباذ والد أنو شروان، وزعم أن الله بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ؛ لأنهم كلهم أخوة أولاد أب واحد، وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات من بينهم؛ لأنها إنما تحدث بسبب النساء والمال، فانقاد قباذ إلى مذهبه وأباح له أن يخلو بالملكة زوجه، فترامى ابنه أنو شروان على قدمي قباذ باكيًا متوسلًا إليه؛ ليعدل عن ذلك، وما زال به حتى رجع عن فكرته، فلما ولي الملك بدأ يقتله انتقامًا منه على ما هم به، ولم يقبل توسلاته إليه، وقال له: «لن أنسى نتن قدميك حين قبلتهما.» ثم استأصل أصحابه وشيعته.

وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني نبذة مفيدة في بيان هذا المذهب، فليرجع إليها مَن شاء.

والمنصور الصناديقي هذا هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعا إليه، وسيمر ذكره في رسالة ابن القارح، وترى كيف كان يجمع إلى دار خاصة، نساء البلد ورجالها ليلًا، ويأمرهم بالاختلاط حتى لا يتميز مال من مال ولا ولد من ولد.

(٥٠) ما تحلب وسال قبل العصر، وهو أفضل الخمر.

(٥١) صارت أميرة.

(٥٢) سوط يضرب به.

(٥٣) وفي ذلك يقول أبو العلاء:

يرقب الناس أن يقوم إمام   ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقـ   ـل مشيرًا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ   ـمة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا   ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام بجمع الزنج بالبصـ   ـرة والقرمطي بالإحساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا   دق يضحى ثقلًا على الجلساء

(٥٤) ذكر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته أكثر من مرة، فمن ذلك قوله:

تورعوا يا بني حواء عن كذب   فما لكم عند رب صاغكم خطر

(٥٥) اسمه سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، بلده جنابة من أعمال فارس متصلة بالبحرين، وكنيته أبو طاهر، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج القرامطة على الخلفاء والملوك وحروبهم معهم، فلا حاجة إلى الإفاضة في ذلك، وحسبنا أن نلم بتاريخه مُوجِزين: ظهر في سنة ٢٨٦هـ بالبحرين، وانضم إليه عدد من الأعراب والقرامطة، ثم ارتفع شأنه وقويت شوكته، فقتل من حوله من أهالي تلك القرى، ولما قرب من نواحي البصرة، جهز إليه المعتضد بالله جيشًا فهزمه الجنابي، وقتل الأسرى وأحرقهم، واستبقى قائده ثم أطلقه بعد أيام، وقال له: «امض إلى صاحبك، وعَرِّفه ما رأيت»، فدخل بغداد في رمضان تلك السنة، وحضر بين يدي المعتضد، فخلع عليه ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩هـ وجرت وقائع بين الفريقين، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ في الحمام، وستجد في رسالة ابن القارح إشارة نافعة إليه.

(٥٦) يقول أبو العلاء في هذا المعنى:

والحق يهمس بينهم   ويقام للسوآت منبر

ويقول:

إذا قلت المحال رفعت صوتي   وإن قلت اليقين أطلت همسي

(٥٧) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت في تلك السنة.

(٥٨) النقاب الذي يحدث بالغائب.

(٥٩) اسمه الحسين بن منصور، كنيته أبو مغيث، وجَدُّه مجوسي، وبلده البيضاء، إحدى بلاد فارس، وكانت وفاته سنة ٣٠٩هـ.

نشأ بواسط والعراق، واشتهر بصحبته لأبي القاسم الجنيد، ومَن في طبقته، كما اشتهر بكفره، وإن بالغ في تعظيمه بعض الناس. ومن شعره قوله:

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت، ولا   لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

وقوله المشهور:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له　　إياك إياك أن تبتل بالماء

وكان يكثر من قوله: «ما في الجبة إلا الله.» فسمي الجبائي لذلك، وكان يقول: «معبودكم تحت قدمي هذا.»! وقد تصدى الإمام الغزالي للدفاع عنه في فصل طويل عقده في كتاب (مشكاة الأنوار) اعتذر فيه عن الألفاظ الشديدة التي صدرت منه، وعزاها إلى إفراطه في محبة الله، واستشهد بقول القائل:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا　　نحن روحان، حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته　　وإذا أبصرته أبصرتنا

وسيمر بك طرف من أخباره في رسالة ابن القارح.

(٦٠) كان السبب في صلبه، كلام جرى منه في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر، فأفتى بحل دمه، وكتب بخطه ذلك، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، فقال لهم الحلاج: «ظهري حمى، ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتقولوا عليَّ، وأنا اعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، ولي كُتب في السنة، فالله الله في دمي»، ولم يزل يردد هذا القول، وهم يكتبون حتى أتموا ما احتاجوا إليه. ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج إلى السجن، ثم جُلد أمام العامة، وقطعت أطرافه، وجُزت رأسه، وأحرقت جثته، ثم ألقيت في دجلة. واتفق أن زادت في تلك السنة زيادة وافرة، فادعى أصحابه أن سبب ذلك هو سخط الحلاج.

(٦١) الحلولية أو مذهب الحلول هي الادعاء بحلول الله — سبحانه — في الأشخاص، ولمعتنقي هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العدُّ، فقد ادعى بعضهم أن روح الله حلت في الأنبياء، واحدًا بعد الآخر، حتى حلت في أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفية، وادعى غيرهم أنها حلت في أبي مسلم، وادعى آخرون حلول الله في الأشخاص الحسنة، فكان الحلمانية إذا رأوا صورة حسنة، سجدوا لها، واهمين أن الله حل فيها، واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله في الأجساد، بقوله تعالى للملائكة في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ لأنه خلقه في أحسن تقويم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وزعم الحلاج أن من هذب نفسه في الطاعة، وصبر على اللذات والشهوات، ارتقى

إلى مقام المقربين، ولا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه منها حظ، حل فيه روح الله، الذي حل في عيسى بن مريم، ولم يرد حينئذ شيئًا إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى.

ولنجتزئ بهذا القدر فإن فيما أورده أبو العلاء في هذا الفصل وابن القارح في رسالته ما فيه الكفاية.

(٦٢) التناسخ: هو مذهب القائلين بانتقال الأرواح بعد مغادرة أجسادها، إلى أجساد أخرى. ويرى بعضهم أن ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الأجساد من نوع الأجساد التي فارقتها الروح. وبهذا الزعم يدين الكثيرون، منهم القرامطة، وأحمد بن حائط، وتلميذه أحمد بن نانوس، وأبو مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب. ومما ذكره الأخير في بعض كتبه قوله: «لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية، إلى الأجساد المتصورة بصور الإنسان، إلا بالقتل والذبح، لَمَا جاز ذبح شيء من الحيوان البتة».

ويزعمون أن التناسخ هو نوع من العقاب والثواب، فالفاسق السيئ العمل، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة في الأقذار، والمسخرة الممتهنة بالذبح.

وزعم بعضهم أن الله — سبحانه — أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين، في دار سوى هذه الدار الدنيا، وخلق فيهم معرفته، والعلم به، وأسبغ عليهم نعمه، فابتدأهم بتكليف شكره، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به، وعصاه بعضهم في جميع ذلك، وأطاعه بعضهم في البعض دون الآخر، فمن أطاعه في الكل، أقره دار النعيم التي ابتدأهم فيها، ومن عصاه في الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب، وهي النار، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض الآخر، أخرجه إلى دار الدنيا، فألبسه هذه الأجساد الكثيفة، وابتلاه بالبأساء والضراء، والشدة والرخاء، والآلام واللذات، على صور مختلفة من صور الناس، وسائر الحيوانات، على قدر ذنوبهم. فمن كانت معاصيه أقل، وطاعته أكثر، كانت صورته أحسن وآلامه أقل، ومن كانت ذنوبه أكثر، كانت صورته أقبح، وآلامه أكثر، ثم لا يزال يكون في الدنيا كرة بعد كرة، وصورة بعد أخرى، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته.

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين، على صحة زعمهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، وبالآية الأخرى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم، بأن النفس لا تتناهى والعالم لا يتناهى لأمد، فالنفس منتقلة أبدًا، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها إلى غير نوعها.

وأنكرت طائفة أخرى، انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التي فارقتها بعد أن أقرت انتقالها إلى أنواع أجسادها، فقالت: «بما أنه لا تناهي للعالم، فوجب أن تتردد النفس في الأجساد أبدًا، ولكن لا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذي أوجب لها طبعها الإشراف عليه، وتعلقها به».

وفي كتابي الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني، فصلان نافعان، لمن شاء الرجوع إليهما، وقد عني ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء ودحضها.

شاع في الهند هذا المذهب، كما شاع فيها غيره، منذ إقدام أزمنة التاريخ، ثم عرفه العرب في أواخر القرن الأول، ودان به الشيعة، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما، ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب، وذاع أمرها، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سكتكين بلاد الهند، الذي كان سببًا في توثق العلاقات بين المسلمين والهنود، فكثر تبادل الآراء بينهم، ووفد بعض الهنود إلى مدينة السلام، وانتشرت تجارة الهند بالعراق.

رأي أبي العلاء في التناسخ

فإذا شئت أن تعرف رأي أبي العلاء في التناسخ، أمكنك أن تلمحه فيما تقرؤه له في هذا الفصل، من السخرية والتبرم.

ولا ريب أن أبا العلاء درس هذا المذهب دراسة حقة، فلم يوافق عليه، وأبدى ارتيابه فيه، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح.

فقد ذكر التناسخ في صباه، على سبيل اللهو والتندر، وإن لم يفته أن يظهر

ارتيابه فيه، في بيت من قصيدة له، في سقط الزند كتبها إلى إبراهيم بن إسحق مدحًا فيه، وجوابًا على قصيدة بعث بها إليه، والبيت:

فلو صح التناسخ، كنت موسى   وكان أبوك إسحق الذبيحا

ثم أنكره أكثر من مرة إنكارًا صريحًا في لزومياته، فقال: يقولون:

«إن الجسم ينقل روحه   إلى غيره؛ حتى يهذبه النقل»
فلا تقبلن ما يخبرونك، ضلة؛   إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وتهكم بجماعة القائلين بهذا المذهب، وأمعن في السخرية منهم، فقال:

يا آكل التفاح لا تبعدن   ولا يقم يوم ردى ثاكلك
قال النصيري، وما قلته،   فاسمع، وشجع يا أخي ناكلك
«قد كنت في دهرك تفاحة   وكان تفاحك ذا آكلك
وحرف هاج لحت فيما مضى   وطالما تشكله شاكلك»

والبيت الأخير سخرية من مذهب القائلين — ومنهم بن سعيد العجلي، وهو أحد من ادعى أنه المهدي المنتظر — أن الأعضاء على صور حروف الهجاء، وأن الألف منها مثال القدم، والعين على صورة العين ... إلخ. وسخر منه وممن يدينون به، في موضع آخر، فقال:

فما بال هذا العصر، ما فيه آية   من المسخ، إن كانت يهود رأت مسخًا
وقال بأحكام التناسخ معشر   غلوا، فأجازوا الفسخ في ذاك والرسخا

فقد قسموا التناسخ إلى أربعة أقسام: نسخ، ومسخ، وفسخ، ورسخ. وقالوا عن الأول إنه انتقال الروح من جسم إنساني إلى آخر، أو من جسم إنساني إلى جسم أرفع منه، وعن الثاني إنه انتقال الروح إلى البهائم، وعن الثالث إلى أنه انتقالها إلى الحشرات، وعن الرابع إنه انتقالها إلى النبات أو الجماد.

(٦٣) أي أن روح جارهم تقمصت في حمار شيخ البلدة، فأصبح ذلك الجار يمشي في الحزام والرسن بعد أن كان يختال في حلته.

(٦٤) أشار أبو العلاء إلى ذلك في لزومياته، فقال:

تقول الهند: «آدم كان قنا   لنا، فسرى إليه مخببوه»
أولئك يحرقون الميت نسكًا   ويشعره لبانًا ملهبوه

ونذكر بهذه المناسبة، قوله في تحبيذ ما يفعله الهند من إحراق موتاهم:

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم   وذاك أروح من طول التباريح
أن حرقوه فما يخشون من ضبع   تسري إليه ولا خفي وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا   غبًّا، واذهب للنكراء والريح

والخفي: نبش الميت. وقوله:

حرق الهند من يموت فما زا   روه في روحة ولا تفكير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتًا   وسؤال لمنكر ونكير

(٦٥) ردد أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في كثير من أشعاره، وأنحى على تلك الطائفة التي اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع، وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك في هذا الجزء، وإليك نخبة من أبدع ما نختاره له في ذلك:

بخيفة الله تعبدتنا   وأنت عين الظالم اللاهي
تأمرنا بالزهد في هذه الدنيـ   ـا وما همك إلا هي

* * *

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى   ولكن لكم فيها التكاثر والكبر

* * *

وليس حبر ببدع في صحابته   إن سام نفعًا بأخبار تقولها
وإنما رام نسوانا تزوجها   بما افتراه وأموالًا تمولها
لا يخدعنك داع قام في ملأ   بخطبة زان معناها وطولها

فما العظات، وإن راعت، سوى حيل   من ذي مقال على ناس تحولها

* * *

رويدك قد غررت، وأنت حر،   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحًا   ويشربها على عمد مساء
يقول: «لقد غدوت بلا كساء»   وفي لذاتها رهن الكساء

* * *

طلب الخسائس وارتقى في منبر   يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامه   أمسى بمثل في النفوس ذهولها

* * *

وكم من فقيه خابط في ضلالة   وحجته فيها الكتاب المنزل
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى   فآض — كما غنى ليكسب زلزل

وزلزل هذا موسيقي يُضرب به المثل في إتقان العود.
(٦٦) من أبدع ما نختاره لأبي العلاء في هذا المعنى قوله في لزومياته:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوَّده أبوه
وما دان الفتى بحجا، ولكن   يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسي، له ولاة   بأفعال التمجس دربوه

(٦٧) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه أبو العلاء في النعي على التقليد، والحث على تمجيد العقل، والاعتزاز به، والدعوة إلى تحكيمه في كل شيء، لملأنا صحفًا عديدة، لا يسمح لنا بها هذا الكتاب الصغير، فلنجتزئ من ذلك بالقليل عن الكثير، وإليك ما نختاره له:

اللب قطب والأمور رحى   فيه تدبر كلها وتدار

* * *

العقل يوضح للنسـ ـك منهجًا فاحْذُ حذوه
وليس يظلم قلب وفيه للب جذوة

* * *

كذب الناس لا إمام سوى العقـ ـل مشيرًا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحمـ ـة عند المسير والإرساء

* * *

صدقت يا عقل، فليبعد أخو سفه صاغ الأحاديث إفكًا أو تأولها

* * *

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

* * *

نُكذِّب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق

* * *

وينفر عقلي مغضبًا إن تركته سدى، واتبعت الشافعي ومالكا

* * *

والعقل يعجب والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قائس
وإذا الرئاسة لم تعن بسياسة عقلية، خطئ الصواب السائس

* * *

قالوا، فمانوا، فلما أن حدوتهم إلى القياس، أبانوا العجز واعترفوا

* * *

وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه
لا يدينون بالعقول، ولكن بأباطيل زخرف كذبوه

* * *

وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض   وأبطلت النهى ما أوجبوه

* * *

فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة   وانظر بقلب مفكر متبصر

* * *

تفكر فقد حار هذا الدليل   وما يكشف النهج غير الفكر

* * *

الفكر حبل متى يمسك على طرف   منه، ينط بالثريا ذلك الطرف

* * *

فكروا في الأمور يكشف لكم بعـ   ـض الذي تجهلون بالتفكير

* * *

فكري أنت ربما هُدي الإنـ   ـسان للمشكلات بالتفكير

* * *

إذا كان التقي بلها وعيا   فأعيار المذلة أتقياء

* * *

وما تريك مرابي العين صادقة   فاجعل لنفسك مرآة من الفكر

* * *

وجدت إياك مفتريًا حديثًا   فأنت على مقص الشيخ تفري

* * *

عاشوا، كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليدًا كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا أو ما سمعوا ولا يبالون من غي لمن سجدوا

* * *

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد

* * *

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا، ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل، واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل في مراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد به عراها

(٦٨) وعند كل فريق أنهم ثقفوا.
(٦٩) ذكر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته فقال:

جنوا كبائر آثام، وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار

(٧٠) ارجع الى بداية هذا الجزء.
(٧١) لأبي العلاء في المنجمين أسوأ رأي، ونجتزئ لك من أشعاره الكثيرة فيهم بقوله:

لو كان لي أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق يد الحياة منجم

(٧٢) اسمه أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندي، كنيته أبو الحسين، وهو ينسب إلى راوند إحدى قرى أصبهان. مات في سن الأربعين في سنة ٢٤٥هـ، وكان أبوه يهوديًّا فأسلم، فكان اليهود يقولون للمسلمين: «ليُفسدن عليكم هذا كتابَكم، كما أفسد أبوه التوراة علينا».

وكان من متكلمي المعتزلة، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه في كتبهم، قالوا: «ولم يكن في زمانه أحذق منه بالكلام، ولا أعرف بدقيقه وجليله.» وكان يلازم أهل الإلحاد؛ فإذا عوتب في ذلك، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم، ثم صار بعدُ ملحدًا زنديقًا.

وأوجز ما ننعته به، أنه رجل لا يستقر على مبدأ، وليس للمبادئ قيمة عنده، فقد كان مسلمًا، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف كتاب البصيرة لليهود، ردًّا على الإسلام، نظير أربعمئة درهم دفعوها له، فلما قبض المال، رام نقضه، فلما أعطوه مئة درهم أخرى عدل عن ذلك. وكان من متكلمي المعتزلة، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذي سماه: فضيحة المعتزلة. وقد ألف كتبًا أخرى متناقضة، ولكن أكثرها كان إلحاديًّا شديد الجرأة، وقد نِيفت كتبه على المئة، ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها، في رسالته. وكان له ذوق خاص في تسمية كتبه، فقد أطلق اسم الزمردة على كتابه الذي دلل فيه على فساد الرسالة والرسل، وازدرى فيه بالنبوات، وعلل هذه التسمية بأن من خاصية الزمرد، أن الحية إذا نظرت إليه ذابت، وسالت عيناها، كما يحدث لأخصامه حين يقرءون كتابه، ومما زعمه فيه قوله: «إنا نجد في كلام أكثم بن صيفي شيئًا أحسن من ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وإن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم ... إلخ»!

وقد ذكر في كتبه الأخرى آراء لا تقلُّ عن هذه جرأة وشناعة، على الأنبياء والدين، فقد طعن على النبي ﷺ في كتابه (الفريد) وطعن على القرآن، وعاب نظمه في كتابه الدامغ، ومما ورد فيه قوله: «إن الله — سبحانه وتعالى — ليس عنده من الدواء إلا القتل، فعل العدو الحنق الغضوب، فما حاجته إلى كتاب ورسول ... وقال في وصف الجنة: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ وهو الحليب، ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع، وذكر العسل، ولا يطلب صرفا، والزنجبيل، وليس من لذيذ الأشربة، والسندس يفترش ولا يلبس، وكذلك الإستبرق؛ وهو الغليظ من الديباج، ومن تخايل أنه في الجنة يلبس هذا الغليظ، ويشرب الحليب والزنجبيل، صار كعروس الأكراد والنبط».

وسيمر بك طرف من أخباره في فصل آخر من هذا الكتاب، وفي رسالة ابن القارح، فلنكتف بهذا القدر، على إيجازه الآن.

(٧٣) **الطيرة والتشاؤم:** أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم، بل هو من أشد مَن عرفناهم تشاؤمًا، ولكنه مع تشاؤمه الذي لا يقف عند حد، ليس من جماعة المتطيِّرين، بل هم أبعد من عرفناهم، عن التطير.

وإنما نعني بالتشاؤم ذلك المذهب الذي يسميه الإفرنج (Pessimisme) ونريد

أن نسميه بالعربية سخطًا، ونسمي أصحابه ساخطين، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم، الذين لا يرون فيه إلا شرًّا مستطيرًا، لا يستطيعون دفعه، ولا أمل لهم في إزالته أو تحسينه، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد. وعلى العكس من ذلك مذهب الرضى، ويسميه الإفرنج (Optimisme)، وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض، فيرون كل ما فيه يدعو إلى الغبطة، ويرونه سائرًا في طريق التقدم والكمال، وفي هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم، وقد أشبع ماكس تورداو، جماعة الساخطين، سخرية وتعنيفًا، ورماهم بنقص في عقولهم، في مقالته التي كتبها عن السخط والرضى (Pessimisme & Optimisme) في كتابه الفلسفي الذي سماه (الغرائب Paradoxes)، وهي مقالة غاية في الإمتاع واللذة، نحب ألا تفوت القارئ، وقد لخصتها مجلة البيان في سنتها الرابعة في عدديها الثاني والثالث، تلخيصًا لا يخلو من الفائدة والنفع، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة في الكتب الإفرنجية، وفي كتاب (الفصول) للأستاذ العقاد، فصل ممتع — على إيجازه — في (ص٥ و٦) عن التشاؤم، وفيه رد مقنع، على من يعيبون على الساخطين سخطهم ونقمتهم على الحياة.

أما الطيرة (Mauvais Augure)، ونقيضها الفأل أو التيمن (Bon Augure)، فمذهب آخر يختلف في نظرنا عن مذهب السخط والرضى كل الاختلاف؛ فقد يكون الإنسان ساخطًا أو راضيًا ولكنه لا يتطير ولا يتفاءل. وعلى العكس من ذلك، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين، ولكنه في الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها.

وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية، وتمليل النفس بما لا يفيد، وترقب المناسبات والمصادفات، لاستنتاج شيء وهمي لا أساس له من الصحة، ولا قيمة له عند العقلاء. وإنما يدعو إليها، في نظرنا، عدم اطمئنان القلب، وخفة العقل، وربما لو رجع الإنسان إلى نفسه يسائلها في أي ساعاتها تميل إلى التعلل بأشباه هذه الخرافات، لرأى أن ذلك كثيرًا ما يحدث في أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مذهل، تملك على الإنسان قلبه، وأطار لبه، وحرمه طمأنينته، فجعله كالغريق يتلمس أتفه الأسباب وأقلها غناء، لينقذ نفسه من الهلاك. فأما في ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك، اللهم إلا إن كان من ذلك النوع الذي أصبح له التطير دينًا وطبعًا.

وهذا غير السخط، الذي أساسه سوء الظن وشدة الحذر والنقمة على الحياة والنظر إليها من جانبها الأسود.

إذا أقررنا ذلك، سهل علينا أن ندرك، كيف كان أبو العلاء ساخطًا ولم يكن متطيرًا.

أما ابن الرومي، فربما لم يكن شديد السخط على الحياة، ولكنه كان — على الرغم من ذلك — إمامًا من أئمة المتطيرين، وسيمر بك في هذا الفصل وفي رسالة ابن القارح ما يزيدك اقتناعًا بطيرته، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه إلا بعد أن يتعوذ، فإذا وصل إلى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح، فإذا رأى ذلك الأحدب الذي تعود مضايقته، جالسًا، جبن فلم يخرج، وخلع ثيابه ثانية، وقد عرف ذلك الأحدب كيف ينغص عليه عيشه، وإن عرف ابن الرومي كيف ينتقم منه ويثأر لنفسه، ببيتيه اللذين وسمه بهما آخر الأبد، وهما قوله:

قصرت أخادعه، وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

ولابن الرومي في تطيره أخبار شتى، منها أن أبا الحسن الأخفش؛ غلام المبرد، كان كثيرًا ما يقرع بابه، فإذا رد عليه ابن الرومي مستفسرًا، أجابه: «مرة ابن حنظلة»! فيتطير من ذلك ولا يجسر على الخروج بقية يومه.

ولما كان هذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئًا من الإسهاب في تفصيل هذه النزعات وتحليلها والمقارنة بينها، فإنا نكتفي بهذا القدر على شدة إيجازه، ونشير إلى رأي أبي العلاء في مذهب المتطيرين والمتفائلين، وتهكمه اللاذع بأصحابه، وسخريته الشديدة منهم. وسيمر بك في هذا الفصل ما يبهرك من حججه وبراهينه القوية التي دلل بها على فساد ذلك المذهب. وإليك نخبة مختارة من كلامه في ذلك:

تروم قياسًا للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها الحصر

* * *

تعرض للطير السوانح زاجرًا أمالك من عقل يكفك زاجر

* * *

أغربانك السحم استقلت مع الضحى سوانح؟ أم مرت حمائمك الورق؟

****

لا تفرحن بفأل، إن سمعت به ولا تطير، إذا ما ناعب نعيا
فالخطب أفظع من سراء تأملها والأمر أيسر من أن تضمر الرعبا

****

آليت لا يدري بما هو كائن متفائل بالأمر أو متطير
كالدار صبحها سوى سكانها فثووا بها، وتحمل المتدبر

****

زجر الغراب تطيرًا، ونقيضه ديك لأهل الدار أبيض أفرق

****

شاهدت قبرة فخفت تطيرًا ما كل ميت — لا أبا لك — يقبر

****

لا يتطير بناعب أحد فكل ما شاهد الفتى طيره

****

وما طير اليمين بمبهجاتي فأخشى الهم من طير الشمال

****

وقد سمي المرء الهزبر تفاؤلًا وليس بباق في الليالي هزبرها

****

ما أسر لتعشير الغراب أسى ولا أبكي خليطًا حل نشارا

ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ولا ظننت سهيلًا كان عشارا

أي لا أضمر حزنًا إذا سمعت الغراب يصيح عشرة أصوات متتابعة، ولا أبكي جمعًا ذهب إلى ذلك البلد المسمى نشارًا، ولا أتوهم أن الزهرة امرأة كما يفعل العرب، ولا أن سهيلًا كان عشارا باليمن.

وهل لحق التثريب سكان يثرب من الناس؟ لا، بل في الرجال غباء
وذو نجب؛ إن كان ما قيل صادقًا فما فيه إلا معشر نجباء

(٧٤) وفي ذلك يقول ابن الرومي في نونيته الرائعة:

وإذا ما ظننت شرًّا، فخفه رب شر يقينه مظنونه

(٧٥) وفي ذلك يقول أبو العلاء:

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير والأجزاء بعد شرور

على أنه أنكر حتى هذا الجزء القليل جدًّا من الخير في مكان آخر، فقال:

لا أزعم الخبر مازجًا كدرًا بل مزعمي أن كله كدر

(٧٦) ستمر بك تلك الحكاية الممتعة في رسالة ابن القارح.
(٧٧) متطيرًا.
(٧٨) التراب.
(٧٩) العيافة زجر الطير.وإن أنس نعامة، فما يأخذها من النعيم ويجعلها بالهلكة، يقول.
(٨٠) الخرف أو العجز.
(٨١) ومما يروونه عن تطير ابن الرومي أيضًا، ما حكاه عنه علي بن عبد الله بن المسيب، قال: دخل علي، يوم المهرجان، وقد أهدى إلي عدة من جواري القيان، وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة، فتطيَّر من ذلك، ولم يظهر إلى أمره،

وأنام باقي يومه، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح فماتت، وجفاه القاسم الوزير فجعل سبب ذلك المغنيتين، وكتب إلي:

أيها المتحفي بحول وعور — أين كانت عنك الوجوه الحسان
فتحك المهرجان بالحور والعـ — ـور، أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحـ — ـرة مصبوغة بها الأجفان
وتجافى مؤمل لي خليل — لج فيه الجفاء والهجران

إلى أن يقول:

لا تتهاون بطيرة أيها النظا — ر وأعلم بأنها عنوان
قف إذا طيرة تلقتك وانظر — واستمع ثم ما يقول الزمان
قلما غاب من أمورك عنوا — ن مبين، وللزمان لسان

إلى أن يقول:

خبر الله أن مشأمه كا — نت لقوم، وخبر القرآن

(٨٢) حمى تنوب يومًا وتترك يومين، وذلك أنها تأخذ في الأيام الثلاثة ثماني عشرة ساعة وهي ربع ساعات تلك الأيام الثلاثة، فسميت كذلك باعتبار الساعات.

(٨٣) مفردها نعج وهو السمين أو الذي أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه.

(٨٤) يعني به أبا عثمان الناجم.

(٨٥) ارجع إلى الجزء الأول.

(٨٦) الجد: ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس بن حجر، وذكره في مكان آخر في لزومياته فقال:

والبخت في الأولى أنال العلا — وليس في آخرة بخت
كذلك قالوا، وأحاديثهم — يبين فيها الجزل والشخت

وكرره في قوله:

أأخشى عذاب الله، والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم! إنها الأرزاق، والمرء جاهل يهذب من دنياه ما لم يهذب

ولأبي العلاء أشعار أخرى كثيرة في الجد، نجتزئ منها بقوله:

والحظ يقسم، عاش بشر ما اشتكى كمها، وعمر أكمها بشار

* * *

والسعد يدرك أقوامًا فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علاتها الشجرا

* * *

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد، والدنيا حظوظ وإقبال

* * *

لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم الأديب، بغير حظ، مغزل
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

* * *

إذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تحصى وإن كذب الخال

العم أي الجماعة، ولا تكرى أي لا تنفد، والخال المخيلة.

موجز رأي الشعراء في الجد

وننتهز هذه المناسبة فنذكر نخبة من آراء الشعراء في الجد، ويمكن القول بأن آراءهم جميعًا تكاد تجمع على أنه حليف الغباء، قال المتنبي:

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيدا

* * *

وما الجمع بين الماء والنار في يد بأصعب من أن أجمع الجد وألفهما

وقال أبو تمام:

ينال الفتى من دهره، وهو جاهل ويكدي الفتى من دهره، وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تأتي على الحجا إذن هلكت من جهلهن البهائم

وقال الضالي:

إذا جمعت بين امرئين صناعة فأحببت أن تدري الذي هو أحدق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل فالرزق واسع وحيث يكون العلم فالرزق ضيق

وقال ابن وهبون:

وحيث ترى زند النجابة واريا فثم ترى زند السعادة كابي

وقال ابن الخياط:

وما زال شؤم الحظ من كل طالب كفيلًا ببعد المطلب المتداني
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه ويعطى مناه العاجز المتواني

وقال المروزي الضرير:

تنافى العقل والمال فما بينهما شكل
فعقل حيث لا مال ومال حيث لا عقل

وقال القاضي الفاضل:

وزيادتي في الحذق فهي زيادة في نقص رزقي

وقال ابن سناء الملك:

هو الجد خذه إن أردت مسلما ولا تطلب التعليل فالأمر مبهم

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة، التي يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه، وهي:

ولما لمست الرزق فانجذ حبله ولم يصف لي من بحره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته فزوجنيها الفقر إذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقي، فما له على الأرض غيري والد، حين ينسب
فلو تهت في البيداء، والليل مسبل على جناحيه، لما لاح كوكب
ولو خفت شرًّا فاستترت بظلة لا قبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد إنسان علي بدرهم لرحت إلى رحلي وفي الكف عقرب
ولو يمطر الناس الدنانير، لم يكن بشيء سوى الحصاء رأسي يحصب
وإن يقترف ذنبًا بيرقة مذنب فإن برأسي ذلك الذنب يعصب
وإن أر خيرًا في المنام فنازح وإن أر شرًّا فهو مني مقرب
أمامي من الحرمان جيش عرمرم ومنه ورائي جحفل حين أركب

(٨٧) للشيعة آراء مضحكة في علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — ودعاوى لا تقف عند حد، وقد ادعى قوم أنه لم يقتل، وإنما الذي قتله ابن ملجم هو شيطان تصور للناس في صورته. أما علي فقد صعد السماء، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه، وهي دعوى تشبه ما ادعوه في عيسى.

وادعى قوم أن الله أرسل جبريل إلى علي، فذهب إلى محمد خطأ لشدة الشبه بين النبي والإمام علي، وهذه الفرقة تقول: «العنوا صاحب الريش» أي جبريل!

وادعى آخرون أن الله خلق محمدًا ثم فوض إليه تدبير العالم وتدبيره، فهو الذي خلق العالم دون الله، ثم فوض محمدٌ تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب، فهو المدبر الثالث، وزعم غيرهم أن عليًّا هو الله، وشتموا محمدًا، وزعموا أن عليًّا بعثه ليثني عنه،

فادعى الأمر لنفسه، ويدعي فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته، ومن سمع منهم صوت الرعد، قال: «عليك السلام يا أمير المؤمنين.» وفي هذه الطائفة يقول أبو إسحق بن سويد العامري:

برئت من الخوارج لست منهم — من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليًّا — يردون السلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد إلى اليوم أن عليًّا راكب ناقة يطير بها فوق السحاب. ومما نذكره بهذه المناسبة، على سبيل التندر والفكاهة، أن أحد أشياخنا المعممين، المشتغلين بنظم الكلام، أراد أن يبتكر ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير القديمة، ويدفع عن نفسه معرة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحي، الذي يحتاجه هذا العصر المملوء بالحياة والتفكير. فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكري العظيم من الشاعر هو أن يستبدل وصف النوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات، فورط نفسه في الأخذ بتلك الخرافة، ودعا الله أن يهبه طيارة يسمو بها إلى السحاب، حتى إذا بلغه حظى بلقيا علي بن أبي طالب، فقال:

فهب لي ذات أجنحة، لعلي — بها ألقى على السحب الإماما

فلم يزد اقتناعنا بجموده، ولكنه وفق إلى إثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع!

وقد نسبوا إلى علي بن أبي طالب علم الجفر، وهو ما يطلقونه على العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر، المحتوى على ما كان وما يكون كليًّا وجزئيًّا. وتدعي طائفة أنه وضع الحروف الهجائية في جلد الجفر، وأنه يمكنه استخراج ما يأتي به الغيب منها بطريقة خاصة، ويدعون أن هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمي إليهم، وأنهم يتوارثونه، وادعى آخرون أن فهم أسرار هذا الجفر قاصرة على المهدي المنتظر، وأنه — دون غيره — يستطيع أن يفقه حقيقة ما في هذا الكتاب الذي سموه بهذا الاسم؛ لأن عليًّا كتبه حروفًا متفرقة في ورق مصبوغ من جلد البعير، وقد اشتهر بين الناس، لاحتوائه ما حدث للأولين والآخرين، ولا يزال كثير من العامة يعني بهذه الخرافات وأشباهها، بلا تدبر ولا روية. ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر، وعن المسيح الدجال،

وغير ذلك من الترهات. وقد وقف أبو العلاء قسمًا كبيرًا من رسالة الغفران واللزوميات لمحاربة أشباه هذه البدع، والتشنيع على من يقولون بها. وحسبنا أن نستدل بقوله منددًا بتلك الخرافة التي يشيعونها عن الخضر:

يقول الغواة الخضر حي، عليهم عفاء، نعم ليل من الفتن اخضرا
ولو صدقوا ما انفك في شر حالة يعاني بها الأسفار، أشعث مغبرا
جنى قائل بالمين، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مضطرا

وقوله منددًا بالمهدي المنتظر:

مجوسية وحنيفية ونصرانية ويهودية
تراقب مهديها أن يقو م فتلقى إلى الحق مهدية

وندد بظهوره في مكان آخر من هذا الجزء، فليرجع إليها من شاء.

(٨٨) أي أدخل السعوط في أنفك لتفيق، والسعوط هو ما يدخل الأنف من مسحوق دقيق التبغ. ولابن الراوندي في هذا المعنى، بيتان آخران، أقل شناعة من هذين البيتين، وهما:

كم عاقل عاقل، أعيت مذاهبه وجاهل جاهل، تلقاه مرزوقًا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقًا

(٨٩) أي هرمي مصر.

(٩٠)

هل العمر إلا نظير السوام وآجالهم أسد تفترس

(٩١) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة في لزومياته، فمن ذلك قوله:

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب إليه فقد حلت البهله
هو الشيخ، لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله

فلا يتزوج أخو الأربعين   إلا مجربة كهله
رأى الشيب في عارضيه المسـ   ـن فنعم القرين له الشهله

وقوله:

إذا أنت زوجت العجوز، على الصبا   فأيامها صن عليك وصنبر
كأنك بعد خمسين استقلت   لمولدك، البناء، دنا ليهوى
وأنك إن تزوج بنت عشر   لا خيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية شيخ مهو مشهورة، لا نحب أن نذكرها هنا، فليرجع إليها من شاء، في (ص٣٥٨ جزء ٢) اللزوميات.

(٩٢) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء:

لا تنكحن عجوزًا، إن دعيت لها   وإن حبيت على تنكيحها الذهبا
فإن أتوك وقالوا إنها نصف   فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

(٩٣) هو واصل بن عطاء، تلميذ الحسن البصري، وصاحب مذهب الواصلية، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة إليه، وكان في زمن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، ويمكن الرجوع إلى مذهبه في كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

(٩٤) نسبة إلى الدار وهي قبيلة من لخم.

(٩٥) **رأي أبي العلاء في الخمر:** لا يجهل أبو العلاء مزايا الخمر، بل هو من أعرف الناس بمزاياها، وإن كان لم يذق لها طعمًا، فقد قرأ جل ما كتبه عنها شعراء العربية جاهليين وإسلاميين وعباسيين، ودرسه كما درس غيره، فأصبح من أعلم الناس بها، وليس ذلك مستغربًا، فقد أتى أبو العلاء في أشعاره بكثير من التشبيهات الرائعة التي تعتمد على البصر قبل غيره. وحسبك ما أتى به من الأوصاف الكثيرة الدقيقة، في وصف الدروع وغيرها، ونكتفي من ذلك كله ببيته المشهور، الذي وصف به سهيلًا في قوله:

وسهيل كوجنة الحب في اللو   ن وقلب المحب في الخفقان

ولم يقصر بشار، في كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين، وإجادة الأوصاف التي كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم، وآية ذلك بيته الرائع المشهور:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ويدرك مزاياها تمامًا، وقد تمنى شربها في كثير من أشعاره، وود لو أنها أصبحت طلقة محللة، ولكنه لم يفته أن يعقب — في كل موضع تمناها فيه تقريبًا — بالسبب الرئيسي الذي يدفعه إلى العزوف عنها، والإحجام عن شربها، وهو إزراؤها باللب. وقد عرفت أن أبا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويجله، ويفتن في تقديسه؛ حتى ليتضاءل أمامه كل اعتبار إذا قيس إليه. وقد أظهرنا أن من أكبر الأسباب التي أزعجته من لقاء الموت — رغم حنينه الدائم إليه — هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذي يحرص عليه ويضن به، ولهذا السبب نفسه ارتاع من الكبر، فقال:

وما أتوقى والخطوب كثيرة   من الدهر إلا أن يحل بي الهتر

ويمكننا أن نتخذ البيت التالي مفتاح فلسته في الخمر وهو:

ولولا أنها باللب تزري   لكنت أخا الندامة والنديم

ومن ثم ندرك السر في رغبته عنها — بالرغم من تمنيه إياها أحيانًا، فقد تمناها في لاميته التي قالها — وهو بالعراق، وأظهر فيها حنينه ووَجْده الشديد إلى بلده (المعرة) فقال:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة   تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق، على شفا   رزى الأماني لا أنيس ولا مال

مقل من الأهلين، يسر وأسرة كفى حزنًا بيت مشت وإقلال

على أنها أمنية اليائس الذي يفضل الموت على الحياة. وإليك نخبة مختارة مما قاله في الخمر، نستدل بها على ما ذهبنا إليه:

أيأتي نبي يجعل الخمر طلقه فتحمل ثقلًا من همومي وأحزاني
وهيهات! لو حلت، لما كنت شاربًا مخففة في الحلم، كفة ميزاني

***

لو كانت الخمر حلًّا، ما سمحت بها لنفسي الدهر لا سرًّا ولا علنا

***

ويهجر طيب الراح خوفًا من السكر

***

هي الراح أهلًا لطول الهجاء وإن خصها معشر بالمدح
فلا تعجبنك عروس المدام ولا يطربنك مغن صدح
ومن يفتقد لبه ساعة فقد مات فيها بخطب فدح

وقد شرح في الأبيات التالية، ما ينجم عن الذهول الذي تحدثه الخمر في نفوس شاربيها، فقال:

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم، وفرقة الأحباب
هتكت حجاب المحصنات، وجشمت مهن العبيد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف، أنهم لبسوا، على كبر، برود شباب
وإذا تأملت الحوادث، ألفيت صهب الدنان أعادي الألباب

وجماع القول: إن أبا العلاء أكثر مِن ذكر الخمر والتشنيع بها في أشعاره، وكما تستطيع أن تفرد لبعض الشعراء — مثل أبي نواس — ديوانًا في مدح الخمر، تستطيع أنت أن تفرد لأبي العلاء كذلك، ديوانًا في ذمها.

(٩٦) يعني مقصورة ابن دريد، وهي أشهر من أن نشير إليها، وأولها:

يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

(٩٧) ويلي هذا البيت قوله:

صفراء، زان رواءها مخبورها فلها المهذب من ثناء الكاس
وكأن شاربها لفرط شعاعها بالليل، يكرع في سنا مقباس
فالراح طيبة، وليس تمامها إلا بطيب خلائق الجلاس

(٩٨) هي الخمر.

(٩٩) الخمر.

(١٠٠) **الجبر:** كرر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته وهو بلا ريب أول من يدين بالجبر، ونجتزئ من أشعاره الكثيرة بالأبيات التالية، للاستدلال بها على يقينه الثابت وإيمانه الذي لا يتزعزع بمذهب الجبر وإذعانه للقضاء والقدر، وهي:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
وفي الأصل غش، والفروع توابع وكيف وفاء النجل، والأب غادر؟
إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة كحالاتها، أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون، إن كان سامعًا «أأنت على تغيير لونك قادر؟»

***

والعقل زين، ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير

***

ويجري قضاء مالكم عنه حاجز فألقوا إلى مولاكم بالمقالد

* * *

نهاب أمورًا، ثم نركب هولها   على عنت، من صاغرين قماء!

* * *

ونحاذر الأشياء بعد يقيننا   ألا يرد الكائنات حذار

* * *

وجبلة الناس الفساد، فضل من   يسمو بحكمته إلى تهذيبها

* * *

يتحارب الطبع الذي مزجت به   مهج الأنام، وعقلهم فيفله

(١٠١) يشبه قول ذي الأصبع العدواني:

كل امرئ صائر يومًا لشيمته   وإن تخلق أخلاقًا إلى حين

(١٠٢) افتن أبو العلاء في نظم هذا المعنى، فقال:

دنتم بأن سيجازيكم إلهكم   فما لأفعالكم أفعال إهمال

(١٠٣) عودة أو رجعة.

(١٠٤) جمع نفية وهي ما تنفيه الحوافز من حصي وغيرها. ومعناها هنا الأشياء الحقيرة التافهة.

(١٠٥) جمع قرم وهو البعير أو الفحل.

(١٠٦) جمع أفيل وهو صغير الإبل.

(١٠٧) جمع عائذ وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج.